سُورَةُ الْجُمُعَةِ

حِينَ يَقْطَعُ نِدَاءُ السَّماءِ ضَجِيجَ السُّوقِ

تَأْلِيفُ: رَدَّادُ السَّلَامِيُّ

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

حِينَ يَقْطَعُ نِدَاءُ السَّمَاءِ ضَجِيجَ السُّوقِ

تأليف: رَدَّاد السَّـلَّامِيُّ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

السورة التي تبدأ بالكون وتنتهي بالسوق

ثَمَّ سورٌ من القرآن تدخل إلى القلب من باب الخوف، وسورٌ تفتحه على مشاهد القيامة، وسورٌ تسير به في منعطفات التاريخ حتى يرى سنن الله وهي تعمل في صعود الأمم وسقوطها، وسورٌ تقوده إلى باطن النفس فتكشف له خفايا الرغبة والهوى والغرور والضعف، أما سورة الجمعة فإن لها طريقًا عجيبًا خاصًّا بها؛ إنها تبدأ بالكون كله وهو في عبادة، ثم تقترب شيئًا فشيئًا حتى تصل إلى قلب الإنسان وهو واقف بين نداءين: نداء السماء ونداء السوق، وبين أول السورة وآخرها تقع واحدة من أكثر الرحلات القرآنية كثافةً في بناء الوعي؛ تسبيحٌ كوني، وبعثة نبوية، وتزكية وتعليم، وأمم تأتي بعد أمم، وفضل إلهي لا ينقطع، ثم صورة مرعبة لمعرفة لا تتحول إلى حياة، ثم امتحان الدعوى أمام الموت، ثم أذان الجمعة الذي يشق ضجيج التجارة، ثم انتشار في الأرض بعد الصلاة، ثم مشهد أخير تتكشف فيه حقيقة القلب حين تلوح التجارة ويلمع اللهو.

ولعل من أسرار هذه السورة أنها لا تسمح لك أن تحبس الدين داخل المسجد، ولا أن تحبس الدنيا خارجه؛ إنها تأتي بك من السوق إلى المسجد، ثم تعيدك من المسجد إلى السوق، لكنها تريد أن تعيدك شخصًا آخر، تريد أن تدخل المسجد وقلبك موزع بين آلاف الأشياء، ثم تخرج وقد عادت الأشياء كلها إلى أحجامها الحقيقية، وعاد الله في قلبك أكبر من المال، وأكبر من اللهو، وأكبر من الخوف على الرزق، وأكبر من تلك الأسباب التي يظن الإنسان، لطول معاشرته لها، أنها هي التي تمسك حياته من أطرافها.

ولهذا فإن الجمعة ليست في هذه السورة مجرد صلاة لها أحكامها وآدابها، بل هي صورة مكثفة للحياة كلها؛ ففي الحياة نداءات لا تنتهي، وكل شيء يريد قطعة من قلبك، المال ينادي، والمنصب ينادي، والخوف ينادي، والشهوة تنادي، والناس ينادون، والجسد ينادي، والرغبة في التفوق تنادي، ثم يأتي صوت من فوق هذا كله يقول: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وعند تلك اللحظة لا يعود السؤال متعلقًا بما تعرفه عن الله، بل بما يعنيه الله لك حقًا؛ لأن ترتيب الأولويات في ساعة التزاحم أصدق أحيانًا من ألف عبارة يقولها اللسان في ساعات السعة.

ومن هنا كان من الطبيعي أن تبدأ السورة قبل حديث الجمعة بكثير، لأن القلب لا يستطيع أن يترك البيع لله إذا لم يعرف أولًا من هو الله، ولا يستطيع أن يثق بأن تفويت الصفقة لن يضيعه إذا لم يستقر في أعماقه أن الله ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، ولا يستطيع أن يتحرر من سطوة اللحظة إذا لم يتذكر الموت، ولا يستطيع أن ينتفع بالذكر إذا أصبح الكتاب في حياته مجرد معلومات يحملها كما تحمل الدابة الأسفار، ولا يستطيع أن يفهم معنى الرسالة حتى يعرف أن وظيفة النبي لم تكن تزويد الناس بالمعلومات وحدها، بل إعادة خلق الإنسان بالتلاوة والتزكية والتعليم والحكمة.

ولهذا فإن بناء السورة شديد الإحكام؛ فالآية الأولى تضع الله في مركز الوجود، والآية الثانية تضع الوحي في مركز بناء الإنسان، والثالثة والرابعة تفتحان الرسالة على أفق الزمن والأمم، والخامسة تحذر من انفصال الكتاب عن الإنسان، والسادسة والسابعة والثامنة تمتحن وهم الاصطفاء بحقيقة الموت، ثم تأتي التاسعة والعاشرة والحادية عشرة لتختبر كل تلك المعاني داخل الحياة اليومية، كأن السورة تقول لك: تستطيع أن تتحدث طويلًا عن الإيمان والكتاب والآخرة، ولكن حين يؤذن للصلاة وفي يدك صفقة مربحة سنعرف أين استقرت تلك المعاني فيك.

إنها سورة قصيرة في صفحات المصحف، لكنها ليست قصيرة في المسافة التي تريد أن تقطعها داخل الإنسان؛ فهي تريد أن تبدأ بك وأنت ترى الأشياء من جهة الدنيا، ثم تنتهي بك وأنت

تراها من جهة الله. تريد أن تعلمك أن الأشياء لا تصبح صغيرة حين تفقد قيمتها، بل حين توضع إلى جوار ما هو أعظم منها؛ فالتجارة ليست شرًّا، ولكنها تصغر أمام أمر الله، والرزق ليس تافهًا، لكنه يصغر أمام الرازق، والحياة ليست بلا قيمة، لكنها تصغر أمام الأبد، والعلم عظيم، لكنه يصبح وبالًا إذا انفصل عن العمل، والانتماء الديني شرف، لكنه يتحول إلى وهم إن لم تصدقه العبودية.

وسنقرأ هذه السورة في هذه الرحلة لا على أنها أحد عشر سطرًا من الوحي فحسب، وإنما أحد عشر بابًا في معرفة الإنسان بنفسه وربه وعالمه ومصيره، وسنقف طويلًا عند كل آية، لأن القرآن لا يُعطي أسراره لمن يمر فوقه مسرعًا؛ بعض المعاني لا تظهر إلا لمن يمكث، وبعض الألفاظ لا تفتح أبوابها إلا بعد طول تأمل، وبعض الروابط بين الآيات لا ترى من بعيد، وإنما تحتاج أن تسير بينها كما يسير المسافر في وادٍ واسع، يلتفت إلى الطريق الذي جاء منه، ويتأمل الجبل الذي أمامه، ويرى كيف يقود المنعطف إلى المنعطف.

وسنبدأ من حيث بدأ الله السورة: لا من المسجد، ولا من السوق، بل من الكون.

الفصل الأول

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

حين تكتشف أن الوجود سبقك إلى العبادة

قبل أن يحدثك القرآن عن صلاة الجمعة، يأخذك بعيدًا عن المدينة ومسجدها وأسواقها، بعيدًا حتى عن الإنسان نفسه، ثم يضعك أمام مشهد تبلغ سعته السماوات والأرض: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأن أول ما يحتاج إليه الإنسان قبل أن يفهم معنى العبادة أن يُنتزع قليلًا من مركز الصورة، لأن النفس بطبيعتها تميل إلى أن تجعل مشكلاتها مركز الكون، فتبدو خسارة صغيرة نهاية العالم، ويبدو نجاح شخصي فتحًا كونيًا، ويكبر الإنسان في عينه حتى تضيق رؤيته عن رؤية ما وراءه، فيأتي القرآن ويفتح فجأة نافذة لا حدود لها، ويريك وجودًا شاسعًا كان قائمًا قبل أن تولد، وسيبقى إلى أن يأذن الله، وكل ما فيه متجه إلى خالقه بالتسبيح.

ولم يقل: «سبّح لله» بصيغة تحكي فعلًا مضى وانتهى، وإنما قال: ﴿يُسَبِّحُ﴾، والفعل المضارع يضعك أمام حركة مستمرة، كأن التسبيح ليس ذكرى من ماضي الكون، بل نبضه الجاري الآن؛ في هذه اللحظة التي تمر فيها عيناك على كلمات الآية، هناك أفلاك تجري، ونجوم تتوهج، وسحب تتشكل، ورياح تتحرك، وبحار تضطرب وتسكن، وأحياء لا يحصي أجناسها إلا الله تتنفس وتنمو وتتحول، وأجزاء دقيقة لا تراها العين تنتظم داخل قوانين مدهشة، وكل ذلك واقع في ملك الله، خاضع لمشيئته، دالّ عليه، منزّه له بلسان الحال الذي أودعه الخالق في الموجودات.

وهذا التسبيح الكوني يغيّر معنى عبادتك أنت، فأنت حين تقول: «سبحان الله» لا تبدأ ذكرًا لم يكن في الوجود قبل صوتك، بل تنضم إلى جوقة كونية لم تنقطع لحظة واحدة، وحين تسجد لا تقوم بحركة غريبة عن طبيعة العالم، بل تعود إلى الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها كل شيء: الافتقار إلى الله والخضوع له. إن العصيان هو النغمة النشاز، أما العبودية فهي اللحن الأصلي للوجود، ولهذا يشعر القلب حين يصدق في العبادة بشيء من السكينة التي لا يستطيع تفسيرها؛ لأنه في تلك اللحظة يعود إلى موضعه الصحيح، بعد أن أتعبه التمرد على حقيقته.

وفي قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ شمول لا يترك شيئًا خارج المشهد، فلا توجد بقعة في هذا الملك العظيم لا تصل إليها دلالة التسبيح، ولا موجود يستطيع أن يستقل عن خالقه، والإنسان الذي يتوهم استقلاله لا يفعل أكثر من أن يبني وهمًا داخل ملك الله، يأكل من رزقه، ويتنفس من هوائه، ويقف على أرضه، ويستعمل جسدًا خلقه له، ثم يتصرف أحيانًا كما لو كان سيد نفسه سيدًا مطلقًا، وهذه واحدة من أعجب مفارقات الإنسان: أن يعيش بكل ذرة فيه محتاجًا إلى الله، ثم يسمح لوهم الاستغناء أن ينبت في قلبه.

والتسبيح في أصله تنزيه لله عما لا يليق به، فكأن الكون في انتظامه وعجائبه وشهاداته المتكاثرة يقول بطريقته: إن خالق هذا كله منزه عن العبث والعجز والنقص والظلم، وما أجمل أن تبدأ سورة الجمعة بهذه الحقيقة تحديدًا، لأن ما ستأمر به السورة بعد ذلك كله مبني على الثقة بالله: ستأمرك أن تترك البيع في لحظة معينة، ولا يستطيع الإنسان أن يترك شيئًا يحبه إلا إذا وثق بمن يأمره، وستذكرك بالموت، ولا يستطيع أن يستقبل هذه الحقيقة إلا من عرف حكمة الله، وستحدثك عن بعثة الرسول، ولا يُفهم إرسال الوحي إلا في ضوء رحمة الله وحكمته.

ثم تأتي أربعة أسماء متتابعة كأنها أربعة أعمدة يقوم عليها عالم السورة كله: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، ولو وقف القلب عند كل اسم منها طويلًا لأدرك أن خاتمة السورة كامنة منذ بدايتها،

وأن مشهد الناس وهم يتركون البيع ويذهبون إلى ذكر الله ليس حكمًا منفصلًا عن التوحيد، وإنما ثمرة مباشرة لمعرفة من هو الله.

إنه ﴿الْمَلِكِ﴾، وهذه الكلمة وحدها كافية لتزلزل أوهام الإنسان عن الملك؛ فما تسميه بيتك ليس ملكًا لك ملكًا مطلقًا، وما تسميه مالك عارية تجري عليها أحكام الله، وما تسميه جسدك لا تستطيع أن تضمن نبضة واحدة من نبضاته، وما تسميه وقتك يمكن أن ينتهي دون أن يأخذ منك إذنًا، والملك الحق هو الذي لا يخرج شيء عن سلطانه، ولا يحتاج إلى أحد في قيام ملكه، ولا يخشى زوالًا ولا انقلابًا ولا منافسًا.

وإذا كان الله هو الملك، فإن أول أثر لهذه المعرفة أن تتغير علاقتك بالأوامر؛ فأمر الملك ليس اقتراحًا، ونداء الجمعة ليس صوتًا يمكن أن يوضع بجوار أصوات السوق على قدم المساواة، ولهذا سيأتي في آخر السورة: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، لأن من عرف الملك لم يجعل السلعة نِدًّا لأمره، ومن عرف أن الأرض كلها ملكه لم يظن أن رزقه محصور في صفقة بعينها.

ثم هو ﴿الْقُدُّوسِ﴾، المنزه المطهر عن كل نقص، وفي مجيء هذا الاسم بعد الملك جمال بالغ، فقد عرف البشر ملوكًا يملكون ويظلمون، ويقهرون ويجهلون، وتفسدهم القوة، أما ملك الله فليس ملك قوة مجردة، بل ملك القدوس؛ سلطانه منزه عن الظلم، وحكمه منزه عن العبث، وأمره منزه عن أن يكون وراءه احتياج، فإذا أمرك فقد أمرك لمصلحتك أنت، وإذا نهاك فإنما يحميك، وإذا دعاك إلى ذكره فلست تضيف إلى ملكه شيئًا، وإنما تنقذ قلبك من شيء.

وهذا المعنى مهم جدًا لفهم العبادة؛ لأن بعض الناس يعبد الله في أعماقه كما لو كان يقدم خدمة لله، وينسى أن الله غني عنه وعن العالمين، وأن كل عبادة إنما تعود ثمرتها إلى العابد، فأنت لا تزيد ملك الله بسجدة، ولكن السجدة تزيدك أنت قربًا واستقامة، ولا ينقص ملك الله إذا أعرضت، ولكن الذي ينقص هو قلبك.

ثم هو ﴿الْعَزِيزِ﴾، الذي لا يُغلب، ولا يمتنع عليه شيء، ولا يخرج أمر من يده، وهذه العزة ستظهر دلالتها العميقة حين تقرأ بعد قليل عن رسول أمي بعثه الله في أمة أمية، ثم امتدت رسالته إلى ﴿آخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾؛ فلو قست ذلك المشروع في لحظته الأولى بمقاييس القوة الأرضية لرأيت رجلًا واحدًا يحمل رسالة في بيئة محدودة، لكن وراء هذا الرسول عزة الله، ولذلك تستطيع كلمة الحق أن تبدأ ضعيفة في ميزان الأرض ثم تتجاوز الإمبراطوريات، لأن قوتها الحقيقية ليست محصورة فيما تراه العيون.

وهو ﴿الْحَكِيمِ﴾، فلا شيء في تدبيره موضوع اعتباطًا، لا وقت الجمعة، ولا ترتيب السورة، ولا إرسال الرسول، ولا الابتلاء، ولا توزيع الأرزاق، ولا تأخير شيء كنت تريده، ولا فتح باب لم يكن في حسابك، والحكمة لا تعني دائمًا أن تعرف أنت وجه الحكمة؛ لأن جزءًا من العبودية أن تؤمن أن ما غاب عنك من حكمة الله ليس غيابًا للحكمة نفسها.

ومن أعجب ما يحدث للإنسان أنه يطمئن إذا فهم السبب، ويضطرب إذا لم يفهم، مع أن إيمانه باسم الله ﴿الْحَكِيمِ﴾ ينبغي أن يمنحه طبقة أعمق من الطمأنينة: لست محتاجًا أن ترى كل الخيوط حتى تعرف أن النسيج ليس عبثًا، لأن الذي يمسك بالخيوط حكيم.

وهكذا تجتمع الأسماء الأربعة لتبني قلبًا قادرًا على استقبال بقية السورة: الملك يحررك من عبودية الأشياء، والقدوس يملأك ثقة بكمال أمر الله، والعزيز يحررك من الخوف من القوى، والحكيم يحررك من القلق أمام ما لا تفهمه.

ولنتأمل شيئًا آخر: لماذا تبدأ السورة بالتسبيح قبل الحديث عن الرسول؟ كأنها تقول إن الوحي الذي سيأتيك بعد لحظات ليس غريبًا عن بنية الكون، فالذي أنزل الكتاب هو الذي خلق السماوات والأرض، والهدى ليس شيئًا دخيلًا على الوجود، وإنما هو خطاب الخالق إلى الكائن الذي منحه القدرة على الاختيار؛ السماوات والأرض منقادتان لأمره الكوني،

والإنسان يُدعى إلى أن ينقاد لأمره الشرعي، فإذا استجاب حدث في داخله نوع من المصالحة بين إرادته وبين الحقيقة الكبرى للوجود.

ومن هنا نفهم لماذا يكون البعد عن الله مرهقًا حتى لو امتلك الإنسان كثيرًا من أسباب المتعة؛ لأن قلبه يكون عندئذ في خصومة مع بنية الوجود نفسه، يحاول أن يصنع لنفسه مركزًا مستقلًا في عالم كل ذرة فيه تقول إن المركز لله، ويحاول أن يجد غناه في عالم كل شيء فيه قائم بالافتقار، ويحاول أن يجد الخلود في دنيا كل ما فيها يمر، فيبقى الاضطراب نتيجة طبيعية لمحاولة العيش بعكس الحقيقة.

وقد تكون أعمق دعوة في هذه الآية أن تنقل التسبيح من لسانك إلى رؤيتك؛ فليس المقصود فقط أن تكرر «سبحان الله»، بل أن يصبح تنزيه الله طريقة تنظر بها إلى الأحداث، فإذا جرى لك ما لم تفهمه قلت في أعماقك: سبحانه أن يظلم، سبحانه أن يعبث، سبحانه أن تخفى عليه حاجتي، سبحانه أن يكون تدبيره بلا حكمة. عندئذ يتحول التسبيح من لفظ إلى مقام معرفي وروحي.

وكم يختلف إنسان يقول «سبحان الله» مئة مرة ثم يسيء الظن بالله عند أول ابتلاء، عن إنسان صارت «سبحان الله» عدسة يرى من خلالها القدر كله؛ الأول حرّك لسانه، والثاني حمل معنى التسبيح.

ثم إن الآية تعيد للإنسان تواضعه المفقود؛ فأنت لست الوحيد الذي يعبد الله، ولا عبادتك هي التي تحفظ نظام العالم، وقبل أن ترفع صوتك بالتسبيح هناك أجرام لا يحصي عددها إلا الله تعلن بوجودها عظمته، وهذه الحقيقة تحمي العبادة من العجب؛ لأنك مهما أكثرت من الذكر فإنك لست سوى مخلوق صغير أذن الله له أن يدخل في موكب تسبيح أوسع منه بما لا يقدر.

ولكن المفارقة المؤلمة أن الإنسان، مع صغره، هو أكثر المخلوقات قابلية للغفلة؛ الجبل لا ينسى قانون الجاذبية، والكوكب لا يتمرد على مداره، والبحر لا يقرر صباحًا أن يتخلى عن طبيعته، أما الإنسان فقد أعطي مساحة للاختيار، وهنا صار شرفه وخطره في آن واحد؛ يستطيع أن يكون عبدًا عن معرفة ومحبة، ويستطيع أن يعيش داخل ملك الله كما لو كان لا يعرف الملك.

ولهذا ستأتي الجمعة بعد عدة آيات كموعد أسبوعي لمقاومة الغفلة؛ لأن الإنسان ليس بحاجة إلى أن يعرف الحقيقة مرة واحدة فحسب، بل إلى أن يُعاد إلى الحقيقة مرارًا، فالدنيا تملك قدرة هائلة على تغطية ما نعرفه، وليس كل نسيان جهلًا؛ قد تعرف أن الله هو الرازق، ثم تتصرف تحت ضغط الخوف كأن الوظيفة هي الرازق، وتعرف أن الموت آتٍ ثم تخطط وكأنك خالد، وتعرف أن الصلاة خير ثم تستثقلها حين تزاحم مصلحة، ومن هنا كانت العبادة عودة متكررة إلى ما تعرفه قبل أن تنساه الحياة.

وإذا قرأت افتتاح السورة بهذه العين، رأيت أن أول آية قد وضعت أمامك معيارًا ستقيس به كل ما يأتي بعدها: الكون كله في مكانه الصحيح لأنه يسبح لله، والسؤال الذي ستجيب عنه بقية السورة هو: كيف يعود الإنسان هو الآخر إلى مكانه الصحيح؟

والجواب سيأتي فورًا في الآية التالية.

فالكون يهتدي بأمر الله.

أما الإنسان، فقد أرسل الله إليه رسولًا.

الفصل الثاني

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

حين لا ينزل الوحي ليزيد معلوماتك، بل ليعيد خلقك

إذا كانت الآية الأولى قد فتحت لنا كتاب الكون، فإن الآية الثانية تفتح كتاب الوحي؛ وإذا كان الكون قد عرف طريقه إلى الله بالتسبيح والانقياد، فإن الإنسان الذي مُنح الإرادة والاختيار يحتاج إلى هداية من نوع آخر، ومن هنا يأتي الانتقال البديع من ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ﴾، فالفاعل واحد: الذي يدبر حركة الأفلاك هو الذي يدبر حركة الأرواح، والذي لم يترك الشمس بلا مدار لم يترك الإنسان بلا رسالة، والذي أقام للجسد قوانينه أقام للقلب طريقه.

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي﴾ يحمل معنى التخصيص والتذكير بالفاعل الحقيقي؛ كأن السورة بعدما عرّفتك بالملك القدوس العزيز الحكيم تقول لك: هذا الملك نفسه هو الذي بعث، فلا تنظر إلى بعثة النبي صلى الله عليه وسلم بوصفها ظاهرة تاريخية نشأت من ظروف اجتماعية أو فكرية فحسب، بل بوصفها فعلًا إلهيًا دخل به الوحي إلى التاريخ.

﴿بَعَثَ﴾، وما أعمق هذه الكلمة؛ فالرسول مبعوث، أي أن وراءه مرسِلًا، وأن الرسالة لم تبدأ من الأرض ثم حاولت أن تصعد إلى السماء، بل بدأت من السماء ونزلت إلى الأرض، وهذا يغير طبيعة المعرفة التي جاء بها النبي؛ فهو لا يقدم اجتهاد عبقري في تفسير الحياة، بل يبلغ عن رب الحياة.

ثم قال: ﴿فِي الْأُمِّيِّينَ﴾، وهي إشارة إلى العرب الذين لم يكونوا أهل كتاب منزل يتدارسونه كما كان عند أهل الكتاب، وفي اختيار هذه البيئة درس عظيم في طبيعة الفضل الإلهي؛ فالرسالة لا تحتاج إلى أن تجد أمامها حضارة مكتملة كي تبدأ، بل تستطيع أن تنشئ من مادة بشرية متواضعة في مقاييس الدنيا أمة تحمل نورًا إلى العالم، لأن قوة الوحي ليست انعكاسًا لقوة البيئة التي نزل فيها.

ثم تأتي واحدة من أعظم المنن: ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾. ليس غريبًا عنهم في لسانه وحياته وأخلاقه ومعرفته بواقعهم، وهذا القرب البشري جزء من رحمة الرسالة؛ فلو جاءهم مَلَك لقالوا كيف نقتدي به ونحن بشر، أما الرسول فيجوع كما يجوعون، ويتألم كما يتألمون، ويفقد أحبة، ويخوض صراع الحياة، ثم يريهم كيف يعيش الإنسان بالله وسط هذه الشروط البشرية كلها.

وهنا تبدأ الآية في تعريف مشروع النبوة بأربعة أفعال عظيمة: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾، ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾. وهذه الأفعال ليست مجرد قائمة وظائف، بل هي خريطة كاملة لصناعة الإنسان القرآني.

فالبداية: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾. قبل أن يطلب منك القرآن أن تفلسف معانيه، يريد أن يسمعك نفسه، لأن للتلاوة أثرًا لا تقوم مقامه الخلاصة؛ القرآن ليس أفكارًا يمكن ضغطها في عشر قواعد ثم الاستغناء عن ألفاظها، بل في نظمه وإيقاعه وصوره وانتقالاته وطريقة خطابه للضمير شيء من التربية لا تنقله إعادة الصياغة.

ثم: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، وهنا تنكشف الفكرة الكبرى التي قد تضيع في ثقافة تجعل الدين معارف فقط؛ فالقرآن لا يريد عقلًا ممتلئًا وقلبًا ملوثًا، ولا يريد حافظًا للنص أسيرًا للشهوة والكبر والحسد، وإنما يريد أن تدخل الحقيقة إلى الباطن فتطهره وتنمي فيه الخير. والتزكية تحمل في أصلها معنى الطهارة والنماء معًا؛ ليست مجرد إزالة للرذيلة، بل بناء للفضيلة.

ثم يأتي التعليم: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، لأن القلب الطيب وحده لا يكفي إن لم يكن له نور يهديه، والعاطفة الصادقة يمكن أن تضل إذا لم يضبطها العلم. وهكذا يبني الإسلام الإنسان بتوازن نادر: لا علم بلا تزكية، ولا تزكية بلا علم.

أما ﴿الْحِكْمَةَ﴾ فهي أن لا يبقى العلم في الذهن مجرد معارف، بل أن يعرف الإنسان كيف يضع الحق في موضعه، وكيف يحوّل المعرفة إلى فعل موزون، وكيف يقرأ الواقع بعين الوحي لا بعين الهوى.

ثم تأتي الجملة التي تكشف حجم التحول: ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾. لم يكونوا مشروعًا مكتملًا أضاف إليه الرسول بعض اللمسات، بل كانوا في ضلال ظاهر، ثم جاء الوحي فصنع منهم شيئًا آخر، وهذه من أعظم شهادات القرآن على قدرة الرسالة على إعادة تشكيل الإنسان.

إنها آية أمل لكل من أثقله ماضيه؛ فلا أحد أكبر من أن يهديه الله، ولا بيئة أكثر فسادًا من أن يعجز الوحي عن خلق نور فيها، ولا قلب إذا صدق في الرجوع أغلقت أمامه أبواب التزكية.

ومن هنا يبدأ السؤال الشخصي الذي ينبغي أن يصحب هذا الفصل كله: ماذا فعل القرآن بي؟ هل ما زلت أقيس علاقتي به بعدد ما قرأت وحفظت، أم بما زكّى وغير؟ لأن الآية لا تعرف نجاح الرسالة بكمية المعلومات، بل بإنسان جديد خرج من الضلال إلى النور.

وهذا ما سيجعل الآية الخامسة مرعبة حين نصل إليها؛ إذ سترينا الوجه الآخر تمامًا: إنسان يحمل الكتاب ولا يحمله الكتاب إلى الله.

لكن قبل ذلك ستفتح السورة بابًا واسعًا في الزمن، لتقول إن هذه المنة لم تكن لجيل انتهى، بل إن لنا فيها نصيبًا نحن الذين جئنا بعدهم.

الفصل الثالث

﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

نحن الذين كنا غائبين يوم نزلت الآية

ثمة آيات تقرؤها فتشعر أنها تتحدث عن قوم مضوا، وثمة آيات تفاجئك بأنك كنت حاضرًا في معناها قبل أن تولد، وهذه الآية من ذلك النوع العجيب: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾. لقد تحدثت الآية السابقة عن قوم كان النبي صلى الله عليه وسلم بينهم يتلو عليهم الآيات ويزكيهم ويعلمهم، وكان يمكن أن ينتهي المشهد هناك، فيظل فضل البعثة ذكرى تخص جيلًا رأى الرسول وسمع صوته، لكن الوحي يفتح فجأة نافذة نحو المستقبل: هناك آخرون سيأتون، لم يلحقوا بعد، لكنهم داخل أفق هذه الرسالة.

إن في العبارة حنانًا عجيبًا لمن جاء بعد القرون الأولى؛ كأن القرآن يقول لكل من سيولد بعيدًا عن مكة والمدينة، وفي زمان لم ير فيه وجه النبي صلى الله عليه وسلم: لست خارج الحكاية، لك نصيب في هذا النور.

وما أجمل كلمة ﴿لَمَّا﴾ هنا؛ فهي لا تقول فقط إنهم لم يلحقوا، بل تحمل معنى أن اللحاق آتٍ، وأن الطريق مفتوح، وأن الأمة مشروع ممتد في الزمن.

وهنا يتغير مفهوم الانتماء؛ فنحن لا ننتمي إلى الجيل الأول لأننا نشاركه الدم أو الجغرافيا، وإنما لأن الوحي نفسه لا يزال يتلو علينا آيات الله، ويعرض علينا طريق التزكية والعلم والحكمة.

والسؤال الحقيقي إذن ليس: كم قرنًا يفصلنا عن رسول الله؟ بل: كم معنى يفصلنا عن طريقه؟

قد يعيش إنسان بعده بألف وأربعمئة عام ويكون أقرب إلى هديه من شخص عاش قريبًا من زمنه ولم يحمل رسالته، لأن القرب في ميزان الوحي ليس قرب التقويم وحده، بل قرب الاستجابة.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، وتكرار الاسمين من أول السورة ليس عبثًا، فامتداد الرسالة عبر الأزمنة مظهر من مظاهر عزته وحكمته. كم من قوى حاولت أن تطفئ هذا النور، وكم من دول قامت وسقطت، وكم من لغات وثقافات تغيرت، ثم بقي القرآن يعبر الحدود والأجيال، لأن بقاءه ليس قائمًا على قوة بشرية منفردة.

وفي الآية معنى آخر بالغ العمق: ليس كل من جاء بعد الجيل الأول مجرد متلقٍّ متأخر، بل يستطيع أن يلحق بمعنى من سبق؛ وهذا يمنح التاريخ الإسلامي طبيعته المفتوحة. أنت لا تستطيع أن تكون من السابقين زمنًا، لكن تستطيع أن تنافسهم صدقًا بقدر ما يفتح الله لك.

ومن هنا ينبغي أن نتحرر من نوع من الحزن الكسول الذي يقول: لو عشنا زمن النبي لكنا أفضل. فالقرآن لا يسألك عن الزمن الذي لم يختره لك، بل عما ستفعل بالهداية في الزمن الذي اختارك له. قد يكون امتحانك مختلفًا، لكنه ليس أقل حقيقة.

ثم إن الآية تشعرنا بمسؤولية نقل النور؛ فما دام في كل عصر ﴿آخَرِينَ﴾ لم يلحقوا، فإن الرسالة لا تُحفظ بالتمجيد التاريخي فقط، بل بأن تنتقل حية من قلب إلى قلب، ومن جيل إلى جيل، لا ألفاظًا جامدة بل تلاوة وتزكية وعلمًا وحكمة.

وهنا يتهيأ القلب للآية التالية، لأن الإنسان قد يسمع هذا كله ثم يغتر فيظن أن وصول النور إليه دليل استحقاق ذاتي، فتأتي الآية الرابعة لتكسر العجب من أساسه:

إنه فضل.

ليس حقًا مكتسبًا.

ولا امتيازًا عرقيًا.

ولا ملكيةً روحية تحتكرها أمة.

بل ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

الفصل الرابع

﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

حين تكتشف أن أعظم ما فيك لم تصنعه وحدك

بعد أن فتحت الآية السابقة باب الرسالة للقادمين الذين لم يلحقوا بالجيل الأول، كان يمكن للنفس أن تتسلل إليها آفة دقيقة من آفات التدين، وهي أن تتحول النعمة إلى شعور بالاستحقاق، وأن ينقلب الانتساب إلى الوحي من باب للشكر إلى سبب للتعالي، وأن يبدأ الإنسان، كلما ازداد قربًا من الخير، ينظر إلى نفسه كأنها هي التي صنعت نورها، وكأن ما عنده من إيمان وعلم وفهم واستقامة نتيجة كفاءته الخالصة، فتأتي هذه الآية القصيرة المهيبة لتضع يدها على أصل كل نعمة في القلب: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾، وكأنها تسحب من تحت أقدام النفس كل الأرض التي يمكن أن يقف عليها العجب، فهذه الرسالة فضل، وهذا القرآن فضل، وهذا الرسول فضل، وهذه القدرة على أن تسمع الآية فيتحرك بها قلبك فضل، وهذه اللحظة التي تجد فيها نفسك راغبًا في الخير بعد أعوام من الغفلة فضل، وهذه الرغبة نفسها التي تدفعك إلى أن تفتح المصحف حين يفتحه غيرك فلا يشعر بشيء هي باب من أبواب فضل الله الذي لا يمكن للإنسان أن يحصيه.

وكلمة ﴿ذَلِكَ﴾ تعيدك إلى ما سبق كله؛ إلى بعثة الرسول في الأميين، وإلى التلاوة، والتزكية، والتعليم، وإلى امتداد الرسالة إلى آخرين لم يلحقوا بالجيل الأول، فكأن القرآن يقول إن هذا المشروع العظيم الذي نقل أمة من ضلال مبين إلى حمل النور ليس صناعة بشرية مكتفية بذاتها، وإنما هو في أساسه منحة من الله، وهذه الرؤية لا تلغي دور الإنسان ولا جهده، لكنها تمنعه من أن يعبد جهده، وتمنعه من أن يرى نفسه المصدر الأخير لما وصل إليه، لأنك تستطيع أن تبذل

السبب، لكنك لا تستطيع أن تخلق الهداية في قلبك، تستطيع أن تقرأ، لكنك لا تملك أن تأمر المعنى أن يفتح لك بابه، تستطيع أن تسمع الموعظة، لكنك لا تستطيع أن تصنع وحدك تلك الرعشة التي تجعلها تنتقل من الأذن إلى الضمير، وتستطيع أن تجلس في مجلس العلم، لكنك لا تملك بقوتك المجردة أن تجعل العلم نورًا بدل أن يكون حجة عليك.

وهنا يفتح القرآن بابًا عظيمًا لفهم العلاقة بين السعي والفضل؛ فكون الهداية فضلًا لا يعني أن ينتظر الإنسان النور وهو مستلقٍ في ظلمات عاداته، كما أن كون الرزق فضلًا لا يعني أن يترك العمل، وإنما يعني أن تسعى بكل ما تستطيع، ثم لا تنسب الثمرة إلى نفسك وحدها، وأن تطرق الباب طويلًا وأنت تعرف أن فتحه ليس حقًا واجبًا لك على الله، وإنما كرم منه، ولذلك يجتمع في المؤمن أمران قد يبدو اجتماعهما صعبًا: اجتهاد شديد وتواضع شديد، فهو يعمل كأن عليه أن يبذل كل ما يستطيع، ثم إذا فُتح له باب قال من قلبه: هذا من فضل ربي.

وكم يختلف هذا عن النفس التي كلما تعلمت شيئًا رأت نفسها فوق الناس، وكلما زاد حفظها زاد احتقارها لمن لم يحفظ، وكلما اتسعت معارفها ضاق صدرها بالخلق؛ لأن العلم حين ينفصل عن معنى الفضل يتحول بسهولة إلى سلطة خفية، أما إذا عرف الإنسان أن النور الذي في قلبه لم يكن حقًا طبيعيًا له، بل هبة من الله، صار أكثر رحمة بمن لم يصل بعد، وأكثر خوفًا على نفسه من أن يُسلب ما أُعطي، وأكثر حياء من أن يستخدم هدية الله في التكبر على عباد الله.

ثم قال تعالى: ﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾، وهذه العبارة تفتح أمام القلب بابًا من الهيبة والرجاء معًا؛ فالفضل ليس ملكًا لقبيلة، ولا حكرًا على طبقة، ولا إرثًا آليًا ينتقل بالأنساب، والله يضع رحمته حيث يشاء بحكمته، وقد يفتح لإنسان كان بعيدًا أبوابًا من الفهم والصدق لم تُفتح لمن عاش طويلًا قريبًا من مظاهر الدين، وقد ينقل قلبًا في لحظة واحدة من وادٍ إلى وادٍ، وقد يخرج من

بيئة لا يتوقع منها الناس شيئًا عبدًا صادقًا يحمل من نور الإيمان ما يعجز عنه كثير ممن أحاطت بهم أسباب الهداية منذ طفولتهم.

وهنا درس بالغ الأهمية في النظر إلى البشر: لا تحكم على النهايات من البدايات، ولا تغلق باب الله على أحد، ولا تجعل ماضي الإنسان سجنًا ترفض أن تراه خارجه، فربك الذي أخرج أمة كاملة من ﴿ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ قادر على أن يكتب لقلب تراه اليوم بعيدًا طريقًا لا تعرف أنت نهايته، وقد يكون الذي تسخر من تعثره الآن أقرب غدًا إلى الله منك، ولذلك كان من سوء الأدب مع فضل الله أن يتصرف الإنسان كأنه يعرف من يستحق الهداية ومن لا يستحقها.

بل إن المؤمن نفسه ينبغي أن يخاف من هذا الباب خوفًا يطهره من الأمن الكاذب؛ فما دام الفضل بيد الله فإن ما في قلبك من خير يحتاج إلى دوام الافتقار، ولا يجوز أن تتحول الاستقامة القديمة إلى ضمان نفسي للمستقبل، فالقلوب تتقلب، ومن أعظم فقه العبودية أن ترى كل يوم من أيام الثبات منحة جديدة، لا رصيدًا قديمًا لا ينفد، ولذلك كان سؤال الثبات من أنبل ما يسأله المؤمن ربه، لأنه يعرف أن القضية ليست أن تبلغ الطريق فقط، بل أن تُحفظ عليه.

ثم ختمت الآية: ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، ولم تقل فقط: والله ذو فضل، بل ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، والعظمة هنا تفتح خيال القلب على ما لا يستطيع إحصاءه؛ فما تراه من فضل الله في حياتك ليس إلا طرفًا مما عنده، وما فاتك في الدنيا لا يعني أن خزائنه ضاقت، وما أبطأ عنك لا يعني أن بابه أغلق، وما حُرمت منه قد يكون من صور الفضل التي لا تفهمها لحظتها، لأن الإنسان يقيس الفضل غالبًا بما وصل إلى يده، بينما قد يكون بعض أعظم الفضل فيما صُرف عنه، وفي أبواب أُغلقت لكيلا يدخل منها شر لا يراه، وفي أمنيات لم تقع لأنها لو وقعت أفسدت فيه شيئًا لا يعرفه.

وهنا ترتفع الآية من مجرد تقرير عقائدي إلى تربية كاملة للقلب؛ فهي تعلّمك أن تنظر إلى كل نعمة بمعنى الشكر، وإلى كل هداية بمعنى الافتقار، وإلى كل تفوق بمعنى المسؤولية، وإلى كل محروم بمعنى الرحمة، وإلى المستقبل بمعنى الرجاء؛ لأن ربك ليس فقير الفضل حتى تخاف أن ينفد الخير قبل أن يصل إليك، بل هو ﴿ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

وإذا استقر هذا المعنى في النفس أصبح العلم نفسه مختلفًا؛ فلا تقرأ القرآن لتجمع ملكية رمزية من المعارف، بل لتتعرض لفضل الله، ولا تدخل إلى كتاب الله وفي قلبك شعور المقتحم الذي سيأخذ أسراره بقوته، بل تدخل كفقير يطرق باب كريم، يقرأ ويتأمل ويعيد النظر ثم يقول: يا رب، افتح لي من كلامك ما يحيي قلبي.

لكن هنا تقع المفارقة الكبرى التي تنتقل إليها السورة مباشرة؛ فقد يُعطى الإنسان الكتاب ولا يأخذ حقيقته، وقد تحيط به النعمة من الخارج ولا تدخل إلى داخله، وقد يكون النص في يده والضلال في قلبه، ولهذا يأتي بعد آية الفضل مباشرة واحد من أعنف الأمثال القرآنية، حتى لا يظن أحد أن امتلاك الكتاب يعني بالضرورة امتلاك الهداية.

فالكتاب قد يكون فوق ظهرك.

وقد لا يكون فيك.

الفصل الخامس

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾

الكتاب الذي تحمله ولا يحملك

لعل هذه الآية من أقسى المرايا التي يضعها القرآن أمام الإنسان المتدين؛ لأنها لا تتحدث عن جاهل لم يصل إليه الكتاب، ولا عن إنسان يعيش بعيدًا عن المعرفة، بل عن قوم ﴿حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ﴾، أي أُعطوا كتابًا من عند الله، وحُمّلوا علمه وعهده وتكاليفه، ثم وقعت المأساة في كلمة واحدة جاءت بعد ذلك: ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، وهنا يتشكل التناقض الذي تبني عليه الآية كلها؛ حُمّلوا ثم لم يحملوا، وصل إليهم الكتاب ولم يصلوا هم إلى حقيقة الكتاب، صار في أيديهم ولم يصر في سلوكهم، وعرفوا ألفاظًا منه ولم يسمحوا لها أن تعيد بناء قلوبهم.

والحمل الأول حمل تكليف وتشريف ومسؤولية، أما الحمل الثاني فهو حمل استجابة وتمثل ووفاء، وبين الحملين يمكن أن تضيع أمم كاملة؛ فقد يمنحها الله نصًا عظيمًا، فتقيم حوله المدارس والكتب والشروح والاحتفالات، ثم تنجح في حفظه من الضياع على الورق وتفشل في حفظه من الضياع في الحياة، فيبقى النص عاليًا في الخطاب، ضعيفًا في القرار، حاضرًا في المراسم، غائبًا في الأخلاق، ويكون الناس قريبين منه بأصواتهم بعيدين عنه بقلوبهم.

ثم تأتي الصورة التي لا تُنسى: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، والأسفار هي الكتب العظيمة، والحمار يحملها على ظهره، وربما كانت أثقل الأشياء التي يحملها وأثمنها في نظر صاحبها، لكنه لا

يدرك من معانيها شيئًا، ولا يتغير بما فيها سطرًا واحدًا، ولا يعرف أهو يحمل حكمة أم حسابًا أم تاريخًا، فالكتاب بالنسبة إليه وزن لا معنى، وثقل لا نور.

وليس المقصود من المثل مجرد الإهانة، بل الصدمة التي تكسر وهمًا شديد الخطورة: وهم أن القرب الخارجي من المعرفة يساوي الانتفاع بها؛ فقد تحمل أثمن كتاب في الوجود ولا يضيف إليك إلا مسؤولية إذا لم يدخل قلبك، وقد تقرأ القرآن كل يوم ثم يبقى بينك وبين خلقه مسافة بعيدة، وقد تتقن الحديث عنه بينما لا يتغير بك شيء، فتكون المشكلة لا في غياب النص بل في غياب الحمل الحقيقي.

وهذه الآية ينبغي للمسلم أن يقرأها بخوف على نفسه قبل أن يقرأها بوصفها وصفًا لغيره، لأن العبرة القرآنية لا تنتهي بانتهاء سياقها التاريخي، وما دام بين أيدينا كتاب من عند الله فنحن داخل دائرة التحذير من نوع مختلف؛ ليس لأن القرآن هو التوراة، بل لأن قانون المسؤولية عن الوحي واحد: كل من أُعطي علمًا من الله ثم لم يعمل بمقتضاه فهو معرض بقدر ما عنده من التقصير لأن يكون علمه عبئًا عليه بدل أن يكون نورًا له.

والسؤال المخيف الذي تزرعه الآية هو: ما معنى أن تحمل القرآن حقًا؟ هل حمل القرآن أن تستطيع أن تستظهر صفحاته، أم أن تستطيع آية واحدة منه أن تستوقفك على باب المعصية؟ هل حمله أن تحفظ قوله تعالى عن العدل، أم أن يمنعك هذا العدل من ظلم من تكره؟ هل حمله أن تعرف آيات التوكل، أم أن تبقى واقفًا حين تهتز أسباب الدنيا تحت قدميك لأن قلبك يعرف من هو المسبب؟ هل حمله أن تقرأ عن الموت، أم أن يعيد الموت ترتيب أولوياتك؟

إن الكتاب الذي لا ينزل من الرأس إلى القلب لا يزال في منتصف الطريق، والكتاب الذي يدخل القلب ولا يصل إلى الجوارح لم يكتمل حمله، ولذلك كان الإنسان القرآني ليس هو الذي يعرف أكثر فقط، بل الذي تتحول معرفته إلى صورة من صور العبودية؛ إذا قرأ عن الرحمة صار

أرحم، وإذا قرأ عن الحساب صار أورع، وإذا قرأ عن الرزق صار أقل ذلًا للناس، وإذا قرأ عن الدنيا صغرت في عينه دون أن يهمل مسؤولياته فيها.

وقد تكمن خطورة العلم في أنه قادر على أن يخدع صاحبه أكثر مما يخدعه الجهل؛ فالجاهل قد يعرف أنه جاهل، أما العالم فقد تمنحه معلوماته شعورًا زائفًا بأنه بلغ، فيصبح العلم نفسه حجابًا بينه وبين التوبة، لأنه كلما نظر إلى رصيده المعرفي ظنه دليلًا على قربه من الله، بينما قد يكون بين معرفته وحقيقته الأخلاقية وادٍ سحيق.

وهنا نفهم لماذا جاءت في الآية الثانية التزكية قبل التعليم في ترتيب الأفعال: ﴿وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، لأن العلم يحتاج إلى نفس مزكاة تحمله، وإلا تحول إلى أداة أخرى للغرور، وربما صار الإنسان أشد قدرة على تبرير هواه كلما ازداد علمًا؛ يستخدم النصوص لا ليحاكم نفسه بها، بل ليحاكم غيره، ويبحث في الكتاب عما يؤكد موقفه بدل أن يبحث عما يصححه.

ومن هنا يمكن أن نقول إن هناك فرقًا هائلًا بين أن تقرأ القرآن وأن تسمح للقرآن أن يقرأك؛ حين تقرأه أنت تمر على آياته، أما حين يقرأك هو فإنه يكشف كبرك وخوفك وشحك وحسدك وأوهامك، ويضع أسماء دقيقة لأمراض كنت تفضل أن تبقيها بلا أسماء، والإنسان الذي يحمل الكتاب حقًا هو الذي يسمح له أن يدخل إلى المناطق التي يخاف أن يدخلها أحد.

وكم من مرة يستطيع الإنسان أن يقرأ قوله تعالى عن الغيبة، ثم يخرج من مجلس التلاوة فيغتاب؛ هنا لم تكن المشكلة أنه لم يعرف الحكم، بل أن الكتاب لم يصل إلى المنطقة التي تتحكم في اللسان. وكم من مرة يقرأ عن حسن الظن بالله ثم يهتز عند أول ضيق رزق كأن خزائن الله أغلقت؛ هنا المعلومة موجودة، لكن المعنى لم يتحول إلى يقين.

وهذا يجعلنا ندرك أن الحفظ الحقيقي للقرآن أوسع من حفظ ألفاظه، فحفظ الألفاظ شرف عظيم، لكن وراءه حفظ الحدود، وحفظ القيم، وحفظ العهد، وأن تكون أنت موضعًا يُرى فيه أثر الكتاب، حتى إذا رآك الناس رأوا شيئًا من الصدق الذي قرأته، وشيئًا من الصبر الذي حفظته، وشيئًا من الرحمة التي سمعتها.

ثم يقول تعالى: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، وفي التعبير انتقال من صورة ثقافية تبدو لأول وهلة كأنها مشكلة في سوء التعامل مع المعرفة إلى حقيقة أعمق: إن عدم الوفاء للكتاب قد ينتهي إلى تكذيب آيات الله ورفض مقتضاها، لأن التكذيب ليس دائمًا كلمة صريحة يقولها اللسان، قد يعرف الإنسان الحق ثم يتصرف معه كأنه غير حق، ويكون سلوكه شهادة عملية على أن ما يؤمن به نظريًا لا يملك وزنًا حقيقيًا في قراراته.

وهنا ينبغي التحفظ والتدقيق: ليس كل عاصٍ مكذبًا بآيات الله، ولا كل تقصير في العمل يساوي الكفر بها، فالآية في سياق قوم مخصوصين كذبوا بآيات الله، لكن المثل يبقى تحذيرًا من الطريق الذي يبدأ بفصل العلم عن العمل، لأن القلب إذا اعتاد مخالفة ما يعرف فقد تتآكل فيه هيبة الحقيقة شيئًا فشيئًا.

ثم يأتي الختام: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾، وكأن الظلم ليس فقط نتيجة لفقد الهداية، بل قد يصبح سببًا في الحرمان منها، فالإنسان حين يظلم الحقيقة التي عرفها، ويصر على ليّها لتناسب هواه، ويكرر ذلك حتى يصير عادة، قد يفقد شيئًا فشيئًا القدرة على استقبال النور، لا لأن الدليل صار أقل وضوحًا، بل لأن الداخل نفسه صار أقل استعدادًا للاعتراف به.

وهذه واحدة من أخطر حقائق القلب: أنه ليس آلة محايدة تستقبل المعلومات بالطريقة نفسها دائمًا، بل يتأثر بما يختاره الإنسان مرارًا، فالطاعة تجعل القلب أرق للنور، والمعصية مع الإصرار

قد تجعل بينه وبين النور طبقات، ولذلك كان العمل بالعلم طريقًا إلى علم أعمق، كما أن خيانة العلم قد تكون بداية فقدان بصيرته.

ولعل الصورة الأشد إيلامًا أن تتخيل إنسانًا قضى عمره قريبًا من الكتب، ثم وصل إلى الله وليس معه من كل ما حمل إلا ثقل الحجة، فكم هو فادح أن يكون الشيء الذي كان يمكن أن ينجيك هو نفسه مما يشهد عليك، أن تكون الآيات التي كان يمكن أن تصعد بك قد مرّت عليك مئات المرات دون أن تغير فيك شيئًا.

ولهذا لا تسأل بعد هذه الآية: كم صفحة قرأت اليوم؟ فقط، بل اسأل أيضًا: ما الذي ينبغي أن يتغير فيَّ بسبب ما قرأت؟ وأي معنى خرج معي من الصفحة إلى اليوم؟ وأي خلق ينبغي أن يترك أثره في معاملتي؟ بهذه الأسئلة يتحول الكتاب من شيء تحمله إلى شيء يحملك، يحملك من نفسك القديمة إلى نفس أصفى، ومن خوفك إلى يقين، ومن شحك إلى عطاء، ومن غفلتك إلى حضور.

وحين يحمل الكتابُ الإنسانَ حقًا يصبح هو نفسه طريقًا يمشي به إلى الله، أما إذا حمل الإنسان الكتاب ولم يحمله الكتاب، فقد يحدث ذلك الانفصال المرعب الذي صورته الآية بأقسى وضوح.

ثم تنتقل السورة من امتحان الكتاب إلى امتحان أشد خصوصية: ماذا لو لم تكن المشكلة في المعرفة وحدها، بل في الدعوى؟ ماذا لو قال الإنسان إنه أقرب الناس إلى الله، ثم جاءت الحقيقة التي تكشف ما في قلبه؟

هنا يدخل الموت إلى المشهد.

الفصل السادس

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

حين تُوضَع الدعوى أمام باب اللقاء

بعد أن كسرت الآية السابقة وهم امتلاك الحقيقة بمجرد امتلاك الكتاب، تأتي هذه الآية لتكسر وهمًا آخر أشد خفاء: وهم امتلاك الله نفسه بالانتساب، وكأن الإنسان يستطيع أن يحوّل علاقته بالله إلى امتياز جماعي مضمون، فيقول تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، والقرآن هنا لا يناقش مجرد فكرة تاريخية منفصلة عنا، بل يضرب أصلًا من أصول الغرور الديني: حين يتحول الانتماء إلى بديل عن العبودية، وحين يظن الإنسان أن اسمه يكفيه عن عمله، وأن الجماعة التي ينتسب إليها قادرة وحدها على منحه منزلة عند الله.

وكلمة ﴿زَعَمْتُمْ﴾ ذات دلالة قوية؛ فالزعم في الاستعمال كثيرًا ما يأتي لما يحتاج إلى برهان، فكأن الآية تقول: الدعوى شيء، والحقيقة شيء آخر، ويمكن للإنسان أن يبني عن نفسه قصة كاملة ثم يعيش داخلها حتى يصدقها؛ يرى نفسه من أهل الله لأنه يحمل اسمًا دينيًا، أو لأنه ينتمي إلى بيئة صالحة، أو لأنه يعرف نصوصًا كثيرة، أو لأنه يدافع عن الحق بلسانه، بينما المعيار الإلهي لا يتوقف عند هذه العلامات الخارجية.

وهنا تأتي العبارة: ﴿أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾، فالولاية في معناها القرآني ليست لقبًا شرفيًا يعلقه الإنسان على صدره، وإنما قرب وطاعة وتقوى، والله تعالى يقول في موضع آخر:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾، فربط الولاية بالإيمان والتقوى، لا بالأنساب والشعارات.

وهذا يعيد بناء تصورنا عن القيمة عند الله؛ فلا أحد يدخل إلى الولاية بواسطة الاسم وحده، ولا توجد بطاقة نسب روحي تعفي صاحبها من عبودية الله، وكلما حاول مجتمع متدين أن يحول الفضل إلى ملكية جماعية ثابتة بدأت فيه بذور المرض نفسه الذي تعالجه هذه السورة.

ثم يأتي الامتحان المفاجئ: ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، وليس المقصود وضع قاعدة عامة بأن المؤمن الصالح ينبغي أن يتمنى الموت؛ فقد ثبت النهي عن تمني الموت لضر نزل بالإنسان، وإنما هذا تحدٍّ في سياق دعوى مخصوصة: إذا كنتم تزعمون لأنفسكم اختصاصًا بالولاية والقرب والكرامة عند الله على هذا النحو، فلماذا يكون الانتقال إليه مرعبًا لكم؟ إن كنتم واثقين من تلك الدعوى، فماذا تصنع بكم فكرة اللقاء؟

وهنا يتحول الموت إلى كاشف نفسي بالغ الدقة؛ لأنه ينزع من الإنسان فجأة كل الأشياء التي يستطيع أن يستند إليها في الدنيا، فإذا فكرت بصدق في موتك سقطت الوظائف والألقاب والأرصدة والصور الاجتماعية، وبقي السؤال المجرد: ماذا بينك وبين الله؟

إن الموت لا يسألك ما الصورة التي نجحت في بنائها أمام الناس، بل يفتح الباب لما بعد الصورة، ولهذا فإن التفكير فيه يملك قدرة نادرة على إزالة مستحضرات التجميل الروحية التي نضعها على ذواتنا؛ قد تقول: أنا صالح، أنا مؤمن، أنا من أهل الحق، ثم حين تقف في خيالك أمام الله تعرف أن المسألة أعمق من كل هذه التسميات.

وليس الخوف من الموت في ذاته دليلًا على فساد صاحبه؛ فطبيعة الإنسان تتعلق بالحياة، والنبي صلى الله عليه وسلم علّم الأمة ألا تتمنى الموت لمجرد الضر، وإنما موضوع الآية كشف دعوى مخصوصة عبر تناقضها الداخلي، وهذا التفريق مهم حتى لا نحمل النص ما لم يقله.

لكن مع ذلك يبقى للموت وظيفة عظيمة في التربية الإيمانية؛ فهو المرآة التي تعيد الأشياء إلى أحجامها. ما أكثر الأشياء التي تكبر في عينك إلى أن تضعها بجوار الموت، فتراها فجأة صغيرة؛ خصومة استهلكت أعوامًا من قلبك، ومنصب تنافست عليه كأنه الخلود، وكلمة مدح فرحت بها أيامًا، ومال خفت عليه كأنه ضمان بقائك، فإذا جاء الموت انتهت سلطتها جميعًا في لحظة.

والإنسان الذي يذكر الموت على الوجه القرآني لا يتحول إلى كائن كئيب يكره الحياة، بل إلى إنسان أكثر قدرة على العيش بوعي، لأن إدراك النهاية يجعل اللحظة أثمن لا أرخص، ويجعل الحب أصدق، والتوبة أسرع، والخصومات أقل قيمة، والعمل الصالح أكثر إلحاحًا.

ولذلك فإن الموت في القرآن ليس عدو الحياة، بل عدو الغفلة عن حقيقتها، والمشكلة ليست أن تموت، فذلك واقع لا محالة، وإنما أن تصل إلى الموت قبل أن تعرف لماذا كنت حيًا.

وكم هو دقيق أن تأتي هذه الآيات في سورة ستنتهي بالتجارة؛ فكأن السورة تريد أن تضع السوق بجوار القبر، حتى لا تبتلعك الصفقة، وأن تضع المال بجوار النهاية، حتى لا يتضخم في قلبك، وأن تذكرك قبل الأمر بترك البيع أنك في الأصل ستترك كل البيع يومًا لا باختيارك.

ففي الجمعة يُقال لك: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ساعاتٍ قليلة طاعة لله، وفي الموت ستترك البيع كله إلى الأبد مهما تشبثت به، فمن لم يتعلم الترك الصغير لله ستأتيه لحظة الترك الكبير قهرًا.

وهنا تظهر واحدة من أجمل الروابط الخفية في السورة: الآية التاسعة ستطلب منك أن تترك السوق بإرادتك حين ينادي الله، والآية الثامنة ستقول لك بعد قليل إنك ستترك الدنيا كلها

حين يأتي الموت سواء أردت أم لم ترد، فكأن الجمعة تدريب أسبوعي على الحقيقة الكبرى: أنك لست عبدًا لما في يدك، وأن قدرتك على الترك لله جزء من استعدادك للترك الأخير.

ولذلك فإن سؤال الآية في عمقه ليس: هل تحب الموت؟ بل: ما الذي أعددته للقاء الذي وراء الموت؟ وهل علاقتك بالله دعوى تستمد يقينها من اسمك، أم حقيقة تستمد قوتها من صدقك معه؟

وهنا ينفتح الباب على الآية التالية، التي ستكشف السبب الذي يجعل أصحاب الدعوى لا يتمنون ذلك اللقاء، لا لأن الموت في ذاته مجهول فقط، بل لأن وراء الذاكرة شيئًا تعرفه النفس جيدًا:

﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾

وهذه العبارة وحدها تحتاج وقفة طويلة؛ لأن الإنسان قد ينجح في نسيان ما فعل، لكن عمله لا ينساه الله.

الفصل السابع

﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾

حين يعرف القلب من نفسه ما لا تقوله الشفاه

تأتي هذه الآية بعد التحدي السابق مباشرة، فتزيح الستار عن السبب الذي يجعل الدعوى تتراجع أمام لحظة الامتحان، فلا تقول إنهم لا يتمنون الموت لأن الموت مجهول، ولا لأن الإنسان مفطور على حب البقاء فحسب، وإنما تضع يدها على موضع أكثر خصوصية ووجعًا: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وكأن وراء الخوف من اللقاء ذاكرة أخلاقية لا يستطيع الإنسان أن يمحوها مهما أعاد كتابة صورته أمام الناس، فهناك شيء في الداخل يعرف، يعرف الكلمات التي قيلت ولم يسمعها إلا الله، والنيات التي أُخفيت وراء أعمال بدت حسنة، والحقوق التي أكلت، والعهود التي نُقضت، والمواقف التي عرف فيها الإنسان الحق ثم انحاز إلى نفسه، وهذه المعرفة الباطنة قد تكون أحيانًا أصدق من كل الثناء الخارجي الذي يحيط به.

وفي التعبير ﴿قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ تصوير بالغ القوة؛ فالعمل لا يبقى خلفك كما يتخيل الإنسان، بل يسبقه إلى المستقبل، وكأن كل فعل ترسله من يومك يمضي أمامك ليقف في المكان الذي ستصل إليه لاحقًا، وأنت تعيش الآن بين أشياء تُقدّمها لنسختك الأبدية من نفسك، فما تقوله اليوم يذهب أمامك، وما تفعله في السر يذهب أمامك، وما تصنعه في الناس يذهب أمامك، وما تنفقه وما تمنعه وما تغفره وما تنتقم فيه لن يبقى حبيس اللحظة، بل يتحول إلى شيء ينتظرك عند الله.

إن الإنسان ينظر غالبًا إلى العمل من جهة وقوعه، أما القرآن فيعلّمه أن ينظر إليه من جهة وصوله؛ أنت ترى الكلمة حين تخرج، والقرآن يريك أين ستصل، ترى المعصية في لحظة لذتها، والقرآن يريك أنها صارت شيئًا مقدمًا بين يديك، وترى الطاعة في مشقتها، بينما هي أيضًا شيء أرسلته إلى الغد الحقيقي، ولهذا تتغير صورة الزمن في القرآن؛ فالمستقبل الأخروي ليس فارغًا ينتظر أن تملأه حين تصل، بل أنت تملؤه الآن، يومًا بعد يوم، بقرارات قد تبدو في لحظتها صغيرة ثم تجدها هناك وقد أخذت حجمها الكامل.

ولهذا فإن الإنسان لا يمضي إلى القيامة خالي اليدين، بل يمشي طوال حياته وهو يرسل إليها أمتعته، وكل يوم ينتهي لا يختفي، وإنما يتحول إلى سجل تقدم أمام صاحبه، وهذه الرؤية وحدها كافية لأن تجعل المرء أكثر حذرًا من فكرة شائعة تستهلك أعمارًا كثيرة: «سأبدأ لاحقًا»، لأن لاحقًا نفسه يتكون مما ترسله إليه الآن، وإذا أجلت الصدق إلى الغد فقد أرسلت إلى الغد اليومَ الذي عشته بلا صدق.

وتعبير ﴿أَيْدِيهِمْ﴾ مع أن العمل قد يكون بالقلب أو اللسان أو سائر الجوارح جارٍ على ما تعرفه العربية من نسبة الكسب إلى اليد لأنها آلة مباشرة لكثير من الأفعال، لكنه في المشهد القرآني يخلق إحساسًا بالمسؤولية الشخصية؛ هذه أشياء صنعتها يدك أنت، فلا يمكنك أن تلقيها كلها على المجتمع أو الظروف أو الخصوم أو الإغراءات، صحيح أن للظروف أثرًا، وأن للفتن قوة، لكن في النهاية هناك مساحة من الاختيار يصبح فيها العمل عملك، وتحمله روحك، وتقف أمام الله به.

وما أكثر ما يهرب الإنسان من هذه الحقيقة ببناء منظومة من التبريرات؛ فإذا ظلم قال: استفزني، وإذا قسا قال: اضطررت، وإذا خان قال: سبقني غيري بالخيانة، وإذا باع مبدؤه قال: الواقع لا يرحم، وإذا تكبر قال: هؤلاء لا يفهمونني، وفي كل مرة يحاول أن ينقل مركز

المسؤولية من داخله إلى شيء خارج عنه، لكن القرآن يعيده إلى يديه: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فلا يمنعه ذلك من فهم الظروف، لكنه يمنعه من استخدامها ستارًا لإعدام مسؤوليته.

وفي الآية ملمح آخر شديد الرهافة؛ فالمرء قد يستطيع أن يخدع نفسه فترة طويلة، لكنه لا يستطيع أن يمحو تمامًا أثر ما يعرفه عن نفسه، ولهذا يكون بعض الخوف من اللقاء امتدادًا لذلك الصراع الصامت بين الصورة التي يريد الإنسان أن يراها في المرآة، والصورة التي تحتفظ بها ذاكرته الأخلاقية، فيستطيع أن يعلن أمام الناس نقاءه، لكن الليل قد يعيده إلى أشياء لا يعرفها إلا هو وربه، وهنا تظهر قيمة التوبة؛ لأنها ليست فقط محوًا للذنب بإذن الله، بل تحريرًا للإنسان من هذا التمزق بين ما يدعيه وما يعرفه، فالذي تاب توبة صادقة لم يعد مضطرًا إلى إنكار ماضيه، بل يقول: نعم، أخطأت، لكنني عدت، والله يحب التوابين.

ومن أعجب رحمة الله أن القرآن حين يذكرك بما قدمت يفتح لك في مواضع أخرى أبواب العودة، حتى لا يتحول الوعي بالذنب إلى قنوط؛ فالمقصود أن تصحو، لا أن تيأس، وأن ترى آثار يديك قبل أن يأتي يوم لا تستطيع فيه تغييرها، وهذه نعمة عظيمة في ذاتها: أن يُريك الله في الدنيا ما ينبغي إصلاحه قبل أن تلقاه به، وأن يوقظ فيك ألم الندم قبل أن يصبح الندم بلا فرصة عمل.

ثم يأتي ختام الآية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾، ولا يقول فقط: والله يعلم أعمالهم، بل يذكر العلم متعلقًا بالظالمين، وكأن القضية ليست معلومات تحصى فحسب، وإنما حقيقة أخلاقية مكشوفة أمام الله، فالظلم الذي يستطيع صاحبه أن يغلفه باللغة، وأن يصنع له رواية مقنعة، وأن يجعل نفسه فيه ضحيةً في أعين الناس، لا تتغير حقيقته عند من يعلم السر وأخفى.

وهنا يصبح اسم الله العليم مريحًا ومخيفًا في الوقت نفسه؛ مريحًا للمظلوم، لأنه يعلم أن الظلم لم يضع في زحام العالم، وأن لحظة ربما لم يرها أحد لم تغب عن الله، ومخيفًا للظالم، لأن قدرته على

السيطرة على الرواية لا تعني قدرته على تغيير الحقيقة، فقد تخسر أمام الناس دفاعك عن نفسك ويعلم الله براءتك، وقد تنتصر أمام الناس في تبرير ظلمك ويعلم الله حقيقتك، وهذا يكفي لإعادة ترتيب قيمة التصفيق واللوم في قلب المؤمن.

وإذا عاش الإنسان على يقين أن الله عليم، بدأ يخف ارتباطه المَرَضي بصورة ذاته أمام الخلق؛ لأن له محكمة أعلى لا تخدعها البلاغة، ولا يغير حكمها عدد المؤيدين، ولا تحتاج إلى تسجيلات ولا شهود لكي تعرف ما وقع، وهذه من أعظم صور الحرية الروحية: أن يكون الله هو مرجعك الأخير في حقيقة نفسك، فلا يكسرك افتراء الناس إذا كنت صادقًا، ولا يخدعك ثناؤهم إذا كنت تعلم في نفسك خللًا يحتاج إلى إصلاح.

وفي هذه الآية أيضًا درس قاسٍ عن أثر الذنب في علاقة الإنسان بالموت؛ فالذي يملأ ما أمامه بالطاعة لا يصبح بالضرورة مشتاقًا إلى الموت في كل لحظة، لكن يصبح اللقاء عنده أقل وحشة؛ لأنه يرجو ما عند الله، أما الذي يعرف أنه ملأ الطريق بما يخجل من عرضه، فإن فكرة النهاية تتحول إلى استدعاء لكل ما حاول نسيانه، ولهذا فإن العلاج الأعمق للخوف الأخلاقي من الموت ليس أن تمنع نفسك من التفكير فيه، بل أن تصلح ما بينك وبين الله.

فما الذي يجعل الموت ثقيلًا؟ ليس كونه نهاية للمتاع فقط، بل أنه لحظة سقوط القدرة على التعديل، فنحن ما دمنا أحياء نستطيع أن نرد حقًا، ونطلب عفوًا، ونتوب من ذنب، ونصل رحمًا، وننفق مالًا، ونقول كلمة خير، أما إذا انتهى الزمن فقد صارت الأشياء التي «قدمتها أيدينا» هي رصيد المواجهة، ولهذا فإن أجمل طريقة للاستعداد للموت ليست كثرة الحديث عنه مجردًا، بل إصلاح ما يجعل اللقاء صعبًا.

وهنا ينبغي أن ينقلب السؤال من: متى أموت؟ إلى: بأي حال سألقى الله؟ لأن تحديد الموعد ليس في يدك، أما العمل على الحال فبابه مفتوح الآن، وقد يكون الإنسان منشغلًا بالخوف من

موت مبكر بينما المشكلة الحقيقية ليست في مبكر أو متأخر، بل في أن يصل الموت قبل أن يصلح ما يعرف أنه يحتاج إلى إصلاحه.

ومن هذا الباب نفهم لماذا لا يريد القرآن للإنسان أن يستخدم ذكر الموت ليزدري الدنيا، بل ليهذب علاقته بها؛ فالدنيا هي المكان الوحيد الذي تستطيع فيه أن تغير ما ستقدمه، وهي مزرعة الآخرة بمعنى المسؤولية والعمل، ولهذا كان من الخطأ أن يتحول ذكر الموت إلى كراهية للحياة، والصحيح أن يتحول إلى إحسان في استعمالها.

ثم إن هناك رابطًا دقيقًا بين هذه الآية والآية الخامسة؛ هناك قوم حملوا الكتاب ولم يحملوه، وهنا أثر ما قدمت أيديهم يقف بينهم وبين دعوى الولاية، وكأن السورة تكشف قانونًا واحدًا: المعرفة التي لا تتحول إلى عمل لن تحميك عند اللقاء، والانتماء الذي لا يتحول إلى صدق لن يحميك عند اللقاء، وما ينفع في النهاية ليس ما رفعت شعاره، بل ما قدمت يدك.

وهذه الحقيقة نفسها ستبلغ في الآية التالية أقصى وضوحها، فلا يبقى الموت مجرد موضوع يجادل به القرآن أصحاب الدعوى، بل يصبح حقيقة تطارد كل إنسان بلا استثناء، وتستخدم الآية لفظًا يهدم أكثر أوهامنا غرورًا: الفرار.

الفصل الثامن

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

الطريق الذي كلما فررتَ منه اقتربتَ إليه

هذه الآية من تلك الآيات التي لا تحتاج إلى كثرة زخرف حتى تهز الإنسان؛ فتركيبها نفسه يحمل قوة الحقيقة التي لا يمكن تجاوزها: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، وبين الفعلين ﴿تَفِرُّونَ﴾ و﴿مُلَاقِيكُمْ﴾ تقوم مفارقة كاملة عن حال الإنسان في الدنيا؛ هو يجري في اتجاه يظنه بعيدًا عن النهاية، بينما النهاية نفسها آتية إليه، وكل خطوة يقطعها في الزمن، مهما كانت غايتها، تنقص المسافة بينه وبين اللقاء.

والفرار من الموت لا يعني دائمًا أن الإنسان يفكر فيه ثم يركض هاربًا، بل قد يكون الفرار في صور أكثر نعومة وخفاء؛ أن يرفض التفكير في النهاية أصلًا، وأن يملأ حياته بضجيج لا يترك فيه مساحة للسؤال، وأن يتعامل مع الشيخوخة والموت كأنهما خطأ يحدث للآخرين، وأن ينفق عمره كله في بناء حياة لا يوجد فيها مكان لفكرة أنه سيخرج منها يومًا، فالغفلة نفسها صورة من صور الفرار.

وقد يكون الإنسان واقعيًا في كل شيء إلا في هذه الحقيقة؛ يضع خططًا لاحتمالات السوق، ويؤمن على بيته وسيارته، ويضع بدائل لأي طارئ مهني، ويحسب ما قد يحدث بعد خمس سنوات، ثم يعيش أمام الاحتمال الوحيد الذي تبلغ نسبته مئة في المئة وكأنه غير وارد، وهذه

مفارقة تكشف قوة التعلق بالحياة؛ فالموت ليس أضعف حقائق المستقبل، بل أقواها يقينًا، ومع ذلك هو أكثرها تعرضًا للتجاهل.

وتقول الآية: ﴿الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾، وكأنها تواجه الإنسان باسمه الخاص للمخاوف كلها، لأن كثيرًا مما نخافه في الحقيقة يعود في طبقة عميقة إلى الخوف من الفناء: نخاف المرض لأنه يذكرنا به، ونخاف الشيخوخة لأنها تقرب صورته، ونخاف فقدان السيطرة لأن الموت هو ذروة خروج السيطرة من اليد، ولذلك فإن التصالح الإيماني مع الموت يحرر الإنسان من كثير من القلق المتفرع عنه.

لكن القرآن لا يقدم هذا التصالح على أنه اقتناع فلسفي بأن الموت «جزء طبيعي من الحياة»، فهذه العبارة قد تخفف وطأته لكنها لا تجيب عن السؤال الأكبر؛ القرآن يقول إن الموت انتقال، وأن وراءه رجوعًا، وأن الذي ستعود إليه ليس قوة مجهولة، بل الله: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

وهنا تتحول صورة الموت من جدار إلى باب؛ ليس ما أمامك بعده عدمًا، بل ردٌّ إلى الله، وكلمة ﴿تُرَدُّونَ﴾ تحمل في داخلها معنى الأصل والمرجع، فالإنسان الذي عاش في الدنيا كأنه منفصل مستقل يُعاد إلى الحقيقة التي كان قائمًا بها منذ البداية: أنه مملوك لله، وأن عودته إليه ليست حادثة عارضة بل نهاية منطقية لرحلته في ملكه.

وإذا تأملت بداية السورة ونهايات هذا المقطع رأيت بناءً بديعًا؛ افتتحت بـ﴿الْمَلِكِ﴾، ثم هنا ﴿تُرَدُّونَ﴾، فكأنك منذ أول السورة داخل ملكه، وكل ما يقع لك يقع في ملكه، ثم تعود إليه في النهاية، فلا خروج حقيقي من سلطانه في البداية ولا في النهاية، وإنما مساحة الاختبار هي: كيف تعيش داخل هذا الملك؟ عبدًا يعرف الملك، أم غافلًا يتصرف وكأنه صاحب الملك؟

ثم يعرّف الله نفسه هنا باسم وصفة يتناسبان تمامًا مع مقام الحساب: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، فهو يعلم ما ظهر منك وما بطن، ما فعله جسدك وما دار في قلبك، ما عرفه الناس وما لم يعرفوه، وما قلت إنك قصدته وما كنت تقصده حقًا، وهذا يهدم كل استراتيجية بشرية تعتمد على الفارق بين الصورة والحقيقة.

في الدنيا تستطيع أن تصنع صورة عن نفسك، وفي الآخرة لا يبقى إلا نفسك؛ تستطيع أن تخفي سببًا، وأن تجمل دافعًا، وأن تختار الكلمات التي تخدم روايتك، لكنك سترجع إلى من يعلم الغيب والشهادة، فلا يكون الحساب على النسخة التي عرضتها للناس، بل على النسخة التي كنت عليها فعلًا.

وهذا المعنى لا ينبغي أن يصنع فقط الخوف، بل الطمأنينة أيضًا؛ فكم من إنسان عمل خيرًا لم يره أحد، وكم من مظلوم مات دون أن يسمع اعتذارًا، وكم من قلب اتُّهم بما لم يخطر فيه، فإذا كان المرجع إلى عالم الغيب والشهادة فلا شيء من هذه الحقيقة يضيع، وفي عالم يسيطر فيه الظاهر على الأحكام، يمنحك الإيمان بعلم الله عدالة لا يقدر عليها البشر.

ثم تأتي الجملة الأخيرة: ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل فقط: فيحاسبكم، بل ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾، كأن الإنسان سيواجه هناك قصة حياته من منظور لم يكن يسمح لنفسه أن يراها به هنا، وستُرد إليه أعماله بمعانيها الحقيقية، وتتساقط التبريرات التي رافقتها، فيرى أثر الكلمة التي نسيها، والنية التي أخفاها، والفرصة التي ضيعها، والخير الذي استصغره، والشر الذي قال عنه: لن يحدث شيئًا.

وهنا يظهر عجز الذاكرة البشرية أمام سجل العمل؛ فنحن ننسى مئات التفاصيل التي صنعت أيامنا، لكن الله لا ينسى، وقد يتذكر الإنسان ذنبًا كبيرًا وينسى عشرات الكلمات التي جرح

بها الآخرين، وقد يتذكر معروفًا عظيمًا فعله وينسى حسنات صغيرة ربما كانت عند الله أثقل مما ظن، ولذلك فإن لقاء الله ليس مجرد استرجاع لذاكرتك أنت، بل كشف للحقيقة كاملة.

ومما يلفت النظر أن السورة لم تقل: «فإنه يدركم» مع أن هذا المعنى صحيح، بل قالت: ﴿مُلَاقِيكُمْ﴾، واللقاء يضع الطرفين في مشهد واحد؛ كأن الموت موعد يتحرك إليك بقدر ما تتحرك أنت إليه، وهذا التصوير يغير علاقة الإنسان بالزمن، فكل يوم لا يذهب فقط من عمرك، بل يأتي بك أقرب إلى الموعد.

وما أعمق أن ينظر المرء إلى عمره بهذه الطريقة؛ نحن عادة نسأل في أعياد الميلاد: كم أصبح عمرنا؟ بينما السؤال القرآني الضمني أشد وقعًا: كم بقي من المسافة التي لا تعرف مقدارها؟ ليس المقصود أن يتحول الإنسان إلى عدّاد متوتر للموت، بل أن يخرج من وهم الرصيد المفتوح، فكل يوم نعمة لأنه يوم قابل للزرع، وكل تأجيل مخاطرة لأنك لا تملك ضمان الصفحة التالية.

ولعل أكبر ما يصلحه ذكر الموت هو علاقة الإنسان بالتفاهات؛ كم من خصومة كانت ستذوب لو تذكر الطرفان أنهما ميتان، وكم من كبر كان سيسقط لو رأى صاحبه جسده خارجًا من كل الألقاب، وكم من شح كان سيلين لو تذكر المرء أنه سيترك ما جمعه، وكم من ذل للناس كان سينتهي لو عرف أن هؤلاء الذين يخشاهم ماضون إلى الموعد نفسه.

إن الموت يسوّي ما بالغت الدنيا في التفريق بينه؛ الملك والفقير، المشهور والمنسي، القوي والضعيف، كلهم يدخلون من الباب نفسه، وفي هذا المساواة ما يهدم غرور القوة، فما أكثر ما يتصرف الإنسان في ذروة سلطانه وكأن جسده استثناء من قانون البشر، ثم تأتي لحظة لا يستطيع فيها منصبه أن يضيف إلى قلبه نبضة واحدة.

وليس المعنى أن لا تخطط للحياة؛ بل من فقه الموت أن تخطط لها أفضل، لأنك تعرف أن وقتك محدود، والوقت المحدود أغلى من الوقت الذي تتوهم أنه بلا نهاية، فالذي يستحضر النهاية لا ينبغي أن يصبح أقل عملًا، بل أكثر انتقاءً لما يستحق أن ينفق فيه عمره، وأشد حساسية تجاه الأشياء التي تسرق أيامه دون معنى.

وهنا يظهر الفرق بين خوفين: خوف يشل الإنسان، وخوف يوقظه؛ الأول يقول له: ستموت، فلا معنى لشيء، والثاني يقول له: ستموت، إذن أعط الأشياء الصحيحة معناها الآن، وأحب من تحب بصدق، وأدِّ الحق قبل أن يفوتك، وتب إلى الله قبل أن يغلق الباب، وابنِ ما يستحق أن يبقى أثره بعدك.

وقد جاء القرآن بالموت هنا قبل نداء الجمعة مباشرة، وهذا الترتيب يفتح بابًا عجيبًا للتدبر؛ فبعد أن يذكرك بأنك ستترك الدنيا كلها، سيطلب منك في الآية التالية أن تترك جزءًا صغيرًا منها ساعة النداء، وكأن من لم يفهم الموت لن يفهم ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ على حقيقته، لأن الذي يعرف أنه مفارق المال كله يومًا لن يجد في ترك البيع دقائق لله خسارة لا تحتمل.

بل لعل الجمعة نفسها صورة مصغرة من حركة الحياة والموت: تكون منتشرًا في الأرض، منشغلًا بالتجارة، ثم يأتي النداء فيقطع حركة الدنيا ويستدعيك إلى الله، ثم تعود بعدها إلى الأرض؛ أما الموت فهو النداء الذي لا عودة بعده إلى السوق، وفي الجمعة تدريب أسبوعي على أن تسمع النداء قبل أن يأتي النداء الأخير.

ومن هنا يتحول الأذان القادم في الآية التاسعة إلى شيء أكبر من إعلان وقت الصلاة؛ يصبح امتحانًا صغيرًا لحقيقة كبرى: هل تستطيع أن تتوقف حين يناديك الله؟ هل تستطيع أن تترك ما في يدك لأنك تعرف أن اليد نفسها ستترك كل شيء يومًا؟ وهل تستطيع أن تقدم الذكر على البيع لأنك عرفت أن رزقك ليس في يد السوق بل في يد الملك الذي افتتحت السورة باسمه؟

إن السورة حتى هذه اللحظة كانت تبني داخلك الأساس النظري والروحي للقرار: عرفت الملك، وعرفت الرسول، وعرفت فضل الهداية، وحُذرت من حمل الكتاب بلا عمل، ووُضعت أمام الموت والرجوع والحساب، والآن لن يبقى الأمر حديثًا عن الآخرين ولا عن المستقبل البعيد، بل سيأتي الاختبار إلى يومك العادي، إلى تجارتك، إلى وقتك، إلى صوت يناديك وأنت منشغل.

وهنا تنتقل السورة من السؤال: ماذا تؤمن؟

إلى السؤال الأشد صدقًا: ماذا تفعل حين يناديك ما تؤمن به؟

وسيأتي الجواب في واحدة من أعظم آيات ترتيب القلب في القرآن:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾

الفصل التاسع

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

حين يختبر النداءُ ترتيبَ الأشياء في قلبك

ها نحن نصل إلى الآية التي حملت السورة اسمها، ولكن العجيب أننا لم نصل إليها إلا بعد رحلة طويلة أعدَّ القرآن فيها القلب لهذا النداء، فقد عرّفنا أولًا أن الوجود كله يسبح لله، ثم عرّفنا بالله الملك القدوس العزيز الحكيم، ثم حدثنا عن الرسول الذي يتلو الآيات ويزكي النفوس ويعلم الكتاب والحكمة، ثم حذرنا من المعرفة حين تبقى محمولة فوق الإنسان ولا تتحول إلى حياة، ثم وضعنا أمام الموت الذي نهرب منه وهو ملاقينا، ثم ذكرنا بالرجوع إلى عالم الغيب والشهادة، وبعد هذا البناء كله يأتي الأمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكأن الاستجابة للجمعة ليست حكمًا منفصلًا هبط فجأة في السورة، وإنما ثمرة لكل ما سبق؛ فمن عرف الملك عرف معنى أن يناديه، ومن عرف الموت عرف أن السوق ليس خالدًا، ومن عرف حقيقة الكتاب أدرك أن الآية لا يراد منها أن نُتلى فقط، بل أن تتحول إلى حركة في الزمن والقدم والقلب.

ويبدأ النداء بأحب الأوصاف وأثقلها مسؤولية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فالقرآن لا يقول هنا: يا أيها الناس، بل يستدعي الإيمان ذاته شاهدًا على الامتثال، وكأن في العبارة سؤالًا خفيًا: إن كنتم قد آمنتم حقًا، فما أثر هذا الإيمان حين يأتي أمر الله في لحظة انشغالكم؟ إن الإيمان ليس كلمة تقال في الفراغ، وإنما تظهر قوته حين يصطدم ببديل محبوب، ولهذا فإن كثيرًا من حقيقة الإنسان لا ينكشف حين يكون الخير سهلًا، بل حين يحتاج الخير إلى أن يزاحم شيئًا تريده النفس؛ فمن السهل أن تقول إن الله أحب إليك ما دام لا شيء يطلب منك أن تختار، لكن

لحظة الاختيار هي التي تكشف ترتيب المحبوبات في الداخل، ولهذا كان نداء الجمعة امتحانًا أسبوعيًا يتكرر في قلب الحياة نفسها.

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾، وتأمل هذا الفعل: ﴿نُودِيَ﴾؛ فالجمعة تبدأ بنداء، والنداء في طبيعته ليس مجرد خبر، بل طلب إقبال، وصوت يناديك لأنه يريدك أن تتحول من موضع إلى موضع، ومن حال إلى حال، ومن انشغال إلى حضور، وكأن الأذان لا يقول فقط: حان وقت الصلاة، بل يقول في المعنى الأعمق: اخرج قليلًا من سيطرة الأشياء عليك، ودع ما أحاط بروحك طوال الأسبوع، وعد إلى المركز الذي تتفرع منه المعاني كلها، فإنك إن بقيت طويلًا بين الأسباب دون أن تعود إلى مسببها أوشك أن تعتقد أن الأسباب هي كل الحقيقة.

وفي اختيار النداء حكمة تربوية بالغة؛ فالإنسان ينسى، والغفلة ليست دائمًا إنكارًا، بل كثيرًا ما تكون غرقًا، فقد يكون المرء مؤمنًا بالله وموقنًا بالآخرة، ثم تبتلعه التفاصيل شيئًا فشيئًا حتى تصبح الأشياء الصغيرة ضخمة، والمشكلات المؤقتة مصيرية، والمال الذي هو وسيلة غاية، والعمل الذي هو جزء من الحياة كل الحياة، فيأتي الأذان في منتصف هذا الغرق لا ليعلمك شيئًا لم تكن تعرفه، بل ليوقظ فيك ما عرفته ثم غطته كثافة الأيام، وبهذا المعنى تصبح الجمعة عملية إنقاذ دورية للقلب من اعتياد الدنيا.

وكم هو جميل أن تكون هذه الصلاة أسبوعية، لأن الإنسان لا يحتاج إلى التذكير مرة واحدة في العمر، بل يحتاج إلى إيقاع متكرر يعيد ضبطه، فكما أن الجسد يحتاج إلى النوم والطعام على نحو دوري، يحتاج القلب إلى محطات يعود فيها إلى مرجعيته، ولا تكفيه معرفة قديمة مهما كانت صادقة؛ فقد يوقن اليوم أن الرزق من عند الله ثم يعود غدًا فيرتعد قلبه من فوات سبب، وقد يقرأ عن الآخرة ثم يطغى عليه أمر الدنيا ساعة الاختبار، ولذلك جاء الدين بطقوس زمنية لا لتقسيم الوقت فحسب، بل لإنقاذ الوعي من التآكل الذي تحدثه العادة.

ثم قال: ﴿مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾، والاسم نفسه يحمل معنى الاجتماع، وكأن العبادة هنا لا ترمم علاقة الفرد بربه فقط، بل تعيد بناء علاقته بالجماعة أيضًا؛ فالناس الذين تفرقت بهم الحاجات خلال الأسبوع يعودون في ساعة واحدة إلى قبلة واحدة، يقفون بلا فوارق السوق التي كانت قبل قليل شديدة الحضور، فالغني الذي يدير تجارته والفقير الذي يبحث عن رزقه، والرئيس والمرؤوس، وصاحب الجاه ومن لا يعرفه أحد، يخلعون عند باب الصلاة كثيرًا من العلامات التي صنعتها الدنيا، ويجلسون أمام خطاب واحد، لأن العبودية تعيد البشر إلى أصلهم المشترك: كلهم عبيد لرب واحد، وكلهم سيموت، وكلهم سيعود إلى عالم الغيب والشهادة.

وفي هذا الاجتماع معنى حضاري لا يقل عن معناه التعبدي؛ فالأمة التي لا تجتمع إلا على المصالح تتحول مصالحها إلى القوة الوحيدة التي تمسكها، أما الأمة التي تجتمع دوريًا على ذكر الله فإنها تتعلم أن فوق المصالح مرجعية أعلى، وأن هناك معنى يمكن أن يقف عنده الغني والفقير معًا، وأن الحياة العامة لا ينبغي أن تكون صراعًا بين رغبات متنافسة بلا ميزان، ولهذا كانت الخطبة جزءًا من هذا المشهد؛ فهي ليست حشوًا قبل الصلاة، بل لحظة يُعاد فيها توجيه الوعي الجمعي إلى الله والحقيقة والمسؤولية.

ثم يأتي الأمر: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وهنا ينبغي أن نتأمل كلمة ﴿فَاسْعَوْا﴾ بعيدًا عن الفهم السطحي الذي يجعلها دعوة إلى الجري الحسي، فقد جاءت السنة بالأمر بالمجيء إلى الصلاة بسكينة ووقار، وإنما السعي هنا سعي القصد والمبادرة والجد، أي لا تجعلوا النداء أمرًا هامشيًا في برنامجكم، ولا تتحركوا إليه بعقلية من يؤدي شيئًا زائدًا إذا بقي له وقت، بل اجعلوا له من الجدية ما يجعل بقية الأشياء تتراجع حين يحين موعده، فالشيء الذي تسعى إليه هو الشيء الذي اعترفت له بالأولوية.

وما أكثر الأشياء التي يسعى الإنسان إليها في حياته، منذ أن يفتح عينيه صباحًا وهو في حركة نحو شيء، يسعى إلى رزق، أو نجاح، أو مكانة، أو حل مشكلة، أو بناء مستقبل، أو إرضاء إنسان، أو تحصيل لذة، وحركة الإنسان كلها تقريبًا يمكن قراءتها من خلال سؤال: إلى ماذا تسعى؟ ثم يأتي القرآن مرة في الأسبوع فيقول لك: يوجد سعي ينبغي أن يعلو فوق هذه المساعي كلها حين يحين وقته، ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، فإذا لم يستطع ذكر الله أن يستوقف سعيك إلى الدنيا في ساعة محددة، فثمة شيء في ترتيب السعي يحتاج إلى مراجعة.

ولم يقل: فاسعوا إلى الصلاة فقط، مع أن المقصود بها الجمعة وخطبتها، بل قال: ﴿إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وهذه العبارة تفتح المعنى على جوهر الشعيرة؛ فالمقصود ليس انتقال الجسد من المتجر إلى المسجد فقط، وإنما انتقال القلب من الغفلة إلى الذكر، فقد يصل الجسد إلى الصف الأول ويبقى القلب في المتجر، وتكون القدم قد تركت الصفقة بينما الخيال لا يزال يعد أرباحها، ولذلك فإن غاية الجمعة أعمق من مجرد حضور مكاني؛ إنها محاولة لجمع الإنسان بعد أن بعثرته الأيام، ولهذا كان الذكر من مادة «الاستحضار» في مقابل النسيان، وكأنك تأتي لتستحضر حقيقة الله بعد أن كادت الأسباب تحجبك عنه.

والذكر هنا يعيد بناء نظرتك إلى الأشياء التي خرجت منها؛ تدخل المسجد والمال في ذهنك بوصفه مورد أمانك، ثم تسمع أن الله خير الرازقين، فتخرج والمال في يدك لا في قلبك، وتدخل وأنت مشغول بمنافسة إنسان، فتسمع عن الموت والآخرة، فتسقط بعض مبالغات الخصومة، وتدخل وأنت ترى نجاحك ثمرة ذكائك وحده، فتسمع ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾، فيعود الشكر إلى موضعه، وبذلك تصبح الجمعة ليست انقطاعًا عن الواقع، بل إعادة تفسير للواقع تحت نور الوحي.

ثم تبلغ الآية أكثر أوامرها جرأة في مواجهة سطوة الدنيا: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، وما أدق أن يذكر البيع بالذات، لأن البيع صورة مكثفة للحركة الاقتصادية وللمصلحة المباشرة ولحظة الربح التي

يصعب على النفس أن تقطعها، فالمال هنا ليس فكرة بعيدة، بل فرصة حاضرة أمامك، وربما كان الزبون في المتجر والصفقة على وشك أن تتم، ثم يقول الله: اترك، وهنا يتحول الإيمان من فكرة إلى كلفة، لأن حقيقة الطاعة تظهر في قدرتها على جعلك تترك شيئًا تستطيع أن تستمر فيه.

ولم يقل القرآن: اتركوا الدنيا، وإنما قال: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ في هذه اللحظة، وسيقول بعد الصلاة: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وهذا يكشف دقة المنهج القرآني في تحرير الإنسان دون تدمير دوافعه؛ لا يريد منك أن تكره المال، وإنما أن تعرف مكانه، ولا أن تهجر السوق، وإنما أن تمنعه من احتلال مقام لا يليق إلا بالله، ولا أن تنسحب من العمران، وإنما أن تعمر الأرض بيد متحركة وقلب غير مستعبد لما في اليد.

وهنا يمكن أن نفهم أن من أعظم وظائف العبادة تدريب الإنسان على «الترك»؛ فالإنسان لا يكتمل بما يستطيع الحصول عليه فقط، بل بما يستطيع أن يتركه حين ينبغي أن يتركه، وكل عبودية للشهوة تبدأ حين يفقد المرء القدرة على قول «لا» لما يريد، ولذلك فإن الصلاة والصيام والزكاة والحج كلها، في وجوه مختلفة، تدرب الإرادة على أن ليست كل رغبة أمرًا واجب التنفيذ، وأن المؤمن قادر على أن يقف أمام شيء يحبه ويقول: الله أحب.

و﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ليست إذن مجرد حركة خارجية في السوق، بل درس داخلي في السيادة: من الذي يملك القرار الأخير فيك؟ هل أنت قادر على ترك المصلحة حين تأتي في وقت أمر الله، أم أن المصلحة هي التي تحدد لك متى تطيع ومتى تؤجل الطاعة؟ إن الإنسان لا يعرف دائمًا من يعبده من خلال ما يسجد له بجسده، بل أحيانًا من خلال الشيء الذي لا يستطيع أن يخالفه، فإذا صار المال أمرًا لا يمكن الاعتراض عليه، ولا يمكن إيقاف السعي إليه لحظةً لله، فقد احتل من القلب مساحة أخطر من كونه مجرد مال.

وليس الأمر موجهًا إلى التجارة لأنها مذمومة، فالقرآن سيعيد الناس إليها بعد قليل، ولكن اختيار البيع يكشف أن الإسلام يريد أن يدخل إلى أكثر مناطق الحياة واقعية وحساسية، فلا يكتفي بإصلاح مشاعرك في الخلوة، بل يتدخل في لحظة الربح والخسارة، لأن من لم يدخل الله معه إلى السوق لم يكتمل توحيده في الحياة؛ ليس التوحيد أن تقول إن الخالق واحد فقط، بل أن تنبني قراراتك على أن الأمر له، والرزق منه، والبركة بيده، وأن ما يفوتك في طاعته لا تستطيع أن تسميه خسارة بمعيار الإيمان.

ثم تأتي الجملة التي تصحح ميزان الإنسان: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾، وكأن المشكلة الكبرى ليست أن الإنسان لا يريد الخير، بل أنه قد يخطئ في تعريفه، فهو يرى الخير من نافذة عاجلة ضيقة: الصفقة التي تتم خير، والمال الذي يزيد خير، والوقت الذي لا «يضيع» في غير العمل خير، بينما الوحي يوسع دائرة النظر ويقول إن الخير ليس فقط ما يزيد رصيدك الآن، بل ما يصلح قلبك ومآلك وحياتك كلها، وقد تكون خسارة مالية صغيرة بابًا إلى خير لا يقاس بالمال، وقد يكون ربح عاجل سببًا لخسارة داخلية لا تظهر في حسابات المتجر.

ومن هنا تكشف الآية أن الوحي لا يصطدم فقط بشهوات الإنسان، بل أحيانًا بطريقة حسابه، فنحن نملك جداول ظاهرة للأرباح والخسائر، لكن الله يعلم من مآلات الأشياء ما لا نعلم، ولذلك فإن الطاعة تحتاج إلى ثقة بأن ميزانه أدق من ميزاننا، فإذا قال: ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فالمؤمن لا يطلب دائمًا أن يرى الخير كاملًا قبل أن يطيع، بل يطيع لأن الذي أخبره بالخير هو الحكيم الذي افتتحت السورة باسمه.

ثم تأتي العبارة الأخيرة: ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، وهي ليست تشكيكًا في أن ذلك خير، بل كأنها توقظ نوعًا أعمق من العلم؛ هناك علم بالأرقام، وعلم بالعواقب، وعلم بما يراه السوق، وعلم بما يراه الوحي، وقد يعرف التاجر قيمة الصفقة ولا يعرف قيمة السكينة التي تضيع منه، ويحسب قدر

الربح ولا يحسب قدر البركة، ويعرف كم سيدخل حسابه ولا يعرف ماذا يخرج من قلبه في الطريق، ولهذا فالعلم الذي تتحدث عنه الآية ليس مجرد ذكاء اقتصادي، بل بصيرة تعرف مراتب الأشياء.

ولعل أجمل ما في الآية أنها لا تقيم خصومة بين الله والرزق، لأن الذي يأمرك بترك البيع الآن هو نفسه الذي سيأمرك بعد قليل بالابتغاء من فضله، وكأن الاختبار ليس: هل تختار الله أم تعيش؟ بل: هل تستطيع أن تعيش بالله؟ هل تستطيع أن تعمل دون أن تعبد العمل، وأن تكسب دون أن يملكك الكسب، وأن تحب النعمة دون أن تنسى المنعم؟ هذه هي الحرية التي تصنعها الجمعة؛ لا تنتزعك من الأرض، بل تنتزع الأرض من عرشها داخل قلبك.

وهكذا يصبح الأذان الأسبوعي سؤالًا متجددًا عن مركز الإنسان: في كل جمعة تناديك السماء من قلب الأرض، لا لكي تفر من العالم، بل لكي تستعيد قدرتك على دخوله دون أن يبتلعك، فالذي يعرف كيف يغلق متجره لله ساعة النداء أكثر قدرة على أن يفتحه بعد الصلاة دون أن يصبح المتجر إلهًا خفيًا، والذي يتعلم أن يترك المال لحظة من أجل الله يتعلم أن المال وسيلة لا سيد، والذي يسمع ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يكتشف أن الحياة أوسع من مجموع ما جمعه.

لكن القرآن لا يريد من هذا الترك أن يتحول إلى رهبانية، ولا من هذا الاجتماع أن يتحول إلى إقامة دائمة خارج حركة الحياة، ولذلك ما إن تنتهي الصلاة حتى يأتي الأمر المعاكس ظاهريًا، المتكامل معها حقيقة: ﴿فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأن الذي قال لك قبل قليل «اترك» يقول لك الآن «اذهب»، والذي أوقف حركتك ليعيد ترتيب قلبك يطلقك مرة أخرى في الأرض، ولكن بقلب يفترض أنه عرف أين يقف الله وأين تقف الدنيا.

الفصل العاشر

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

حين يعيدك المسجد إلى الحياة ولا يعزلك عنها

لو انتهى الخطاب القرآني عند قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ لكان من الممكن أن يفهم الإنسان، إذا اقتطع الآية عن سياقها، أن الاقتراب من الله يعني الابتعاد عن حركة الدنيا، وأن قداسة الإنسان تقاس بمقدار انسحابه من السوق والعمل والإنتاج، لكن الآية التالية تأتي فوراً لتمنع هذا الفهم وتعيد بناء العلاقة بين العبادة والحياة على توازن مدهش: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فقد أوقفك الله عن البيع ليعيد قلبك إلى مركزه، ثم أطلقك في الأرض من جديد؛ فالمسجد ليس محطة نهاية، وإنما محطة تصحيح، والعبادة ليست انسحاباً من العالم، بل إعادة تأهيل للإنسان كي يعود إلى العالم ولا يضيع فيه.

والانتقال بين الأمرين سريع ودقيق: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ ثم ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأن المؤمن يتعلم مرونة العبودية؛ ففي لحظة تكون الطاعة أن تترك، وفي لحظة أخرى تكون الطاعة أن تتحرك، والإنسان الذي يظن العبادة شكلاً واحداً قد يخطئ مراد الله، فليست القداسة في السكون دائمًا ولا في الحركة دائمًا، وإنما في أن تكون حيث يريدك الله على الهيئة التي يريدها، فقد يكون بقاؤك في المتجر وقت النداء غفلة، ثم يصبح رجوعك إلى عملك بعد الصلاة جزءًا من قيامك بمسؤولية الحياة.

وتأمل التعبير: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، فالانتشار كلمة واسعة تفتح صورة الحركة الإنسانية كلها؛ يخرج الناس من المسجد كلٌّ إلى شأنه، هذا إلى تجارة، وذاك إلى عمل، وآخر إلى أسرة، ورابع إلى علم، وخامس إلى سفر، وكأن الإسلام لا يريد أن يصنع من المؤمنين جماعة معلقة خارج التاريخ، بل بشرًا يعمرون الأرض، ويحملون معهم إلى حركتها أثر ما أخذوه من ذكر الله، وهنا يقع الامتحان الحقيقي للصلاة: ليس فقط كيف كنت فيها، بل ماذا أخذت منها إلى ما بعدها؟

إن أسهل صور التدين أن تكون صالحًا في الأماكن التي لا تنازعك فيها الدنيا، لكن ثمرة العبادة تظهر حين تعود إلى مواطن الاحتكاك؛ في المسجد لا يوجد زبون ستغريك حاجته إلى الكذب، ولا خصم سيستفزك، ولا فرصة مالية تختبر أمانتك، ولا سلطة تختبر عدلك، ولذلك فإن كثيرًا من فضائل الدين لا يمكن أن تولد داخل العزلة وحدها، وإنما تحتاج إلى الأرض التي أمر الله أن تنتشر فيها، حيث يصبح الصدق قرارًا له ثمن، والأمانة موقفًا، والصبر احتكاكًا، والتوكل حركة وسط الأسباب.

ومن هنا نستطيع أن نفهم أن المسجد لا ينافس الحياة، بل يصنع الإنسان الذي يستطيع أن يحياها على نحو صحيح، كما أن القلب لا ينافس الجسد بل يمنحه الاتجاه، فلو بقي الإنسان في الذكر منفصلًا عن العمل لضاع جانب من رسالته، ولو بقي في العمل منفصلًا عن الذكر ضاع قلبه، والسورة تريد جمع الاثنين في بنية واحدة: انقطاع مؤقت عن السوق كي لا يملكك، ثم عودة إلى السوق كي تعمر الأرض، وذكر مستمر في الحالين حتى يبقى الله هو المركز.

ثم قال تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، وهذه العبارة تعيد تسمية الرزق كله؛ فأنت تسميه راتبًا، أو ربحًا، أو ثمرة جهد، أو عائدًا من مشروع، وكل هذه أوصاف صحيحة من جهة الأسباب، لكن القرآن يضع وراءها الوصف الأعمق: إنه من فضل الله، لا بمعنى إلغاء دورك،

بل بمعنى أن دورك ليس مستقلًا عن شبكة من النعم التي لم تصنعها؛ العقل الذي خطط، والجسد الذي تحرك، والفرصة التي وُجدت، والناس الذين تعاملت معهم، والظروف التي تيسرت، والسلامة من عوارض لا حصر لها، كل ذلك داخل فضل أوسع من قدرتك الفردية.

وهذا التعبير يحطم وهمين متقابلين: وهم الكسل الذي يقول إن الرزق من الله فلا حاجة إلى السعي، ووهم الغرور الذي يقول إن الرزق من جهدي فلا حاجة إلى الله؛ فالآية تجمع السعي والفضل في جملة واحدة: ﴿فَانْتَشِرُوا﴾، تحركوا وخذوا بالأسباب واعملوا، ثم ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، لا تنسوا وأنتم تتحركون أن النتيجة ليست مملوكة لكم ملكًا مطلقًا، وأن السبب الذي بين أيديكم لا يتحول إلى ثمرة إلا بإذن الله.

وهذا التوازن من أجمل ما يحرر الإنسان من القلق؛ لأن القلق المفرط على الرزق ينشأ أحيانًا من اعتقاد خفي أن الكون كله فوق كتفيك، وأن عليك أن تضمن المستقبل ضمانًا كاملًا، وأن أي خطأ في تدبيرك قد يغلق الحياة إلى الأبد، أما المؤمن فيأخذ بالأسباب بجدية لكنه يعرف أن الرزق ليس محصورًا في ذكائه، ولذلك يجتهد دون أن يؤله اجتهاده، ويخطط دون أن يعبد خطته، ويفرح بنجاحه دون أن ينسى الفضل، وإذا أغلق باب لم ينهدم العالم في قلبه، لأنه يعرف أن فضل الله أوسع من الباب.

وفي كلمة ﴿ابْتَغُوا﴾ معنى الطلب الجاد، فلا مكان في الإسلام لتصور روحي يزدري العمل المشروع، فاليد التي تعود من الصلاة لتطلب رزقًا حلالًا ليست يدًا أقل قربًا من الله إذا حملت نية صالحة وأدت حقوق الله والناس، بل قد يصبح كد الإنسان على من يعول، واستغناؤه عن سؤال الناس، وإتقانه لعمله، وإسهامه في عمارة الأرض أبوابًا من العبادة بمعناها الواسع، لأن

الإسلام لا يقسم الحياة قسمين منفصلين: قسمًا لله وقسمًا لا علاقة لله به، بل يريد لله أن يكون حاضرًا في نية الإنسان وأخلاقه ومقاصده وهو يتحرك في العالم.

ثم تأتي العبارة التي تحفظ الانتشار من أن يتحول مرة أخرى إلى غفلة: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾، وهذه من أجمل مواضع السورة؛ لأن الله لم يقل: انتشروا في الأرض وانتهى، بل أرسل الذكر معكم إلى الأسواق والطرقات والمكاتب والحقول، كأن الصلاة أعادت إشعال المصباح، ثم يقول لك القرآن: لا تتركه في المسجد وأنت تخرج، احمله معك، فإن المشكلة لم تكن في السوق نفسه، بل في دخول السوق إلى موضع في القلب لا ينبغي أن يدخله.

ولم يقل ﴿واذكروا الله﴾ فقط، بل ﴿كَثِيرًا﴾، وكأن كثرة الاحتكاك بالدنيا تحتاج إلى كثرة من الذكر تقاوم أثرها، فالإنسان الذي يتعرض طوال يومه لإعلانات ورغبات ومخاوف ومنافسات وأحاديث عن المال والنجاح يحتاج إلى حضور متكرر لمعنى الله، لأن القلب لا يبقى فارغًا؛ إن لم تملأه الحقيقة ملأته الأشياء، وإن لم يتكرر فيه الذكر تكررت فيه أصوات العالم حتى تصبح هي الصوت الوحيد الذي يسمعه.

والذكر هنا ليس محصورًا في تحريك اللسان، مع عظم شأن الأذكار، بل يمتد إلى حضور الله في الوعي؛ أن تذكره حين تعرض عليك معاملة مشبوهة، فتتركها، وأن تذكره حين يغريك الغضب بكلمة جارحة، فتكف، وأن تذكره حين تنجح، فتشكر بدل أن تتكبر، وأن تذكره حين تضيق بك الأسباب، فتتوكل بدل أن تنهار، وأن تذكره حين ترى رزق غيرك، فلا يحرقك الحسد، لأنك تعلم أن الفضل بيده.

بهذا المعنى يصبح السوق نفسه ساحة ذكر؛ ليس لأنك تتوقف عن العمل لتردد الكلمات طوال الوقت، بل لأن ذكر الله يصير حاضرًا في طبيعة القرار، وهنا تظهر درجة أعمق من التدين من تلك التي لا تعرف الله إلا في أوقات الشعائر، فالمؤمن الكامل التكوين لا يترك ربه عند باب

المسجد، بل يحمل وعيه به إلى كل مكان، حتى تصبح الأمانة في الصفقة أثرًا من آثار الذكر، والعدل في العمل ذكرًا مجسدًا، والرحمة بالعامل ذكرًا، والامتناع عن الغش ذكرًا، لأن كل ذلك ثمرة لحضور الله في القلب.

وهذا يفتح لنا فهمًا واسعًا للعبادة، فالعبادة ليست فقط لحظات يفصلها الإنسان عن بقية حياته ثم يعود بعدها إلى عالم محايد، وإنما الصلاة هي قلب يغذي بقية الأعضاء، فإذا كانت صلاتك لا تستطيع أن تغير طريقة بيعك وشرائك وكلامك وتعاملاتك فثمة انقطاع بين الشعيرة والحياة يحتاج إلى إصلاح، كما أن العلم في الآية الخامسة إذا لم يتحول إلى حمل حقيقي كان كحمل الأسفار، كذلك الصلاة إذا لم يمتد نورها إلى ما بعدها فقد فات الإنسان جانب من مقصدها التربوي.

ثم يختم الله الآية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، والفلاح كلمة واسعة تجمع النجاة والفوز وحصول المطلوب، والعجيب أن طريق الفلاح هنا ليس عبادة معزولة ولا دنيا منفلتة، بل هذا التركيب كله: صلاة، ثم انتشار، ثم ابتغاء للرزق، ثم ذكر كثير، وكأن القرآن يهدم الثنائية التي عذبت كثيرًا من البشر حين ظنوا أن عليهم أن يختاروا بين الروح والعمران، ففي التصور القرآني يستطيع الإنسان أن يكون عابدًا وهو منتج، وزاهد القلب وهو غني اليد، ومقبلًا على الآخرة وهو يعمر الدنيا، ما دام يعرف ترتيب الأشياء ولا يجعل الوسائل آلهة.

ويمكن أن نقرأ الآية بوصفها خريطة ليوم الإنسان المؤمن: هناك وقت تتوقف فيه عن الحركة لتعرف لماذا تتحرك، ثم وقت تتحرك فيه بما عرفت، وهناك عبادة تستجمع بها قلبك، ثم دنيا تختبر فيها صدق ذلك القلب، وهناك رزق تطلبه، لكنك تسميه فضلًا حتى لا تتكبر، وهناك ذكر يصحبك حتى لا تنسى، وفي النهاية فلاح لا يُبنى على تمزيق الإنسان بين عوالم متخاصمة، بل على وحدة حياته تحت عبودية الله.

ومن أعظم ما تعالجه الآية وهمًا شائعًا مفاده أن الانشغال بالله يعطل مصالح الإنسان، بينما السورة تقول: اترك البيع حين يأتي وقته، ثم انتشر وابتغ، وكأن الذي يأمرك بالتوقف هو نفسه الذي يأمرك بالحركة، فلا تناقض بين الأمرين إذا فهمت أن الله لا يريد منك تعطيل الدنيا بل إخضاعها للميزان، ومتى استقام الميزان صار العمل نفسه أكثر نقاء، لأنك لم تعد مضطرًا إلى الغش بدعوى طلب الرزق، ولا إلى سحق الآخرين بدعوى النجاح، ولا إلى بيع ضميرك بدعوى المستقبل، فأنت تطلب فضل الله لا فضل المعصية.

وهنا يظهر سر لطيف في الانتقال بين ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾ و﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾؛ فالذي يترك شيئًا لله لا يخرج من دائرة الرزق، بل ينتقل من التعلق بالسبب إلى الثقة بالمسبب، ولذلك فإن ترك البيع في وقته ليس خصومة مع الرزق، بل إعلان لعقيدة الرزق، كأن العبد يقول بالفعل لا باللسان: يا رب، أنا أترك هذا السبب الآن لأنني أعلم أن السبب ليس أنت، وأن خزائن فضلك لا تتوقف على الصفقة التي أمامي.

وما أحوج الإنسان المعاصر إلى هذا المعنى وهو يعيش داخل عالم يجعل الإنتاجية قيمة شبه مطلقة، ويقيس الإنسان بما ينجز ويملك ويتقدم، حتى أصبح بعض الناس يشعر بالذنب إن توقف عن العمل، وكأن الراحة والعبادة والأسرة والسكينة أشياء تسرق من «الحياة الحقيقية»، بينما القرآن يعيد تعريف الحياة الحقيقية بحيث تشمل السعي والوقوف، العمل والذكر، الحركة والسكون؛ فلا يتحول الإنسان إلى آلة إنتاج تستهلك نفسها ثم تسأل في النهاية: لماذا كنت أركض؟

إن ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ بعد الصلاة تعلمك أن العبادة لا تقتل الطاقة، و﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ بعد الانتشار تعلمك أن الطاقة لا ينبغي أن تقتل الروح، وبين الجملتين يقوم الإنسان المتوازن الذي يريده القرآن.

لكن السورة، وهي ترسم هذا النموذج الجميل، لا تختم عنده مباشرة؛ لأن الواقع البشري يعرف لحظات تنكسر فيها هذه الموازين، وقد وقع في زمن النبوة مشهد صار قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة، مشهد كان النبي صلى الله عليه وسلم فيه قائمًا يخطب، ثم جاءت تجارة ولهو، فانجذبت إليهما نفوس وانفضت، وكأن السورة تريد أن تنهي خطابها لا بصورة الإنسان الكامل الذي استوعب كل شيء، بل بصورة ضعف واقعي يمكن أن يسكننا جميعًا، ثم تضع في النهاية المعيار الذي يصحح كل اختيار: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

وسنقف في الفصل الأخير عند هذه الآية طويلًا، لأنها ليست مجرد عتاب على واقعة مضت، بل خلاصة السورة كلها، وفيها يظهر السؤال الذي ظل يرافقنا منذ أول آية: إذا كان الكون كله يسبح لله، وإذا كان الله هو الملك والرازق، وإذا كان الموت ملاقينا، فلماذا يستطيع بريق عابر في السوق أن يسرق القلب من ذكر الله؟

الفصل الحادي عشر

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

حين تكشف لحظةٌ واحدة ترتيبَ العالم في القلب

تأتي خاتمة سورة الجمعة بمشهد لا يشبه النهايات الهادئة؛ ليس فيها دعاء ختامي، ولا وصف للنعيم، ولا وعد مجرد، بل واقعة بشرية حيّة يكاد القارئ يرى حركتها بعينه: رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب في الناس، والمجلس قائم على ذكر الله، ثم يلوح في الخارج شيء من الدنيا، تجارة وصلت، ومعها ما يصحب قدومها من حركة ولهو، فتتجه إليها الأبصار، ثم تتحرك الأجساد، ثم يتفرق جمع كان قبل قليل مجتمعًا، ويظل النبي صلى الله عليه وسلم قائمًا، وهنا ينزل القرآن لا ليحكي الحادثة فقط، بل ليجعل منها مرآة خالدة يرى فيها كل جيل نفسه؛ لأن التجارة تغيرت أشكالها، واللهو تغيرت وسائله، لكن القلب البشري الذي قد يترك الأعلى للأدنى إذا لم ينتبه إلى ترتيب الأشياء لم يتغير.

ولعل أول ما ينبغي أن نتأمله أن هذه الآية لم تأت في مطلع السورة، وإنما جاءت بعد كل ما سبق، وكأن القرآن يريد أن يقول إن المشكلة التي تظهر في آخر الطريق لا يمكن فهمها إلا إذا استعدنا بدايته؛ فالذين انفضوا إلى التجارة لم يكونوا في كون آخر، بل كانوا يعيشون تحت السماء نفسها التي افتتحت السورة بقول الله عنها: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وكان الذي يقف أمامهم هو الرسول الذي قالت السورة فيه قبل آيات: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وكانوا قد سمعوا عن الموت الذي يفر الإنسان منه وهو ملاقيه، وعن الرجوع إلى عالم الغيب والشهادة، ثم جاءت لحظة عملية صغيرة لتختبر وزن كل

هذه الحقائق في القلب، وهذا من أعجب أساليب القرآن في التربية، فهو لا يكتفي بأن يعلّمك المعنى، بل يريك اللحظة التي يمكن أن يهزم فيها معنى صغيرٌ في النفس معنى عظيمًا عرفه العقل.

﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾، تبدأ المسألة من الرؤية، وهذه لفتة دقيقة في طبيعة الفتنة؛ فكثير من الأشياء لا تبدأ حين نملكها، بل حين تقع عليها العين، فالرؤية تفتح باب التعلق، وما يراه الإنسان قد يستدعي في لحظة شبكة كاملة من الرغبات والذكريات والمخاوف، ولهذا فإن القلب ليس مستقلًا تمامًا عما تسمح العين له أن يطيل النظر إليه، وما أكثر ما دخل إلى النفس من باب صورة عابرة ثم أقام فيها زمنًا طويلًا، والقرآن حين يذكر الرؤية هنا لا يلوم العين على مجرد الإدراك، وإنما يكشف سرعة انتقال المرئي من الخارج إلى الداخل حتى يملك القدرة على تغيير القرار.

والتجارة في ذاتها ليست مذمومة، وقد أمر الله قبل آية واحدة بالانتشار في الأرض والابتغاء من فضله، واللهو ليس كله في رتبة واحدة من الحكم، وإنما موضع العتاب هنا أن شيئًا مباحًا أو مرغوبًا في الأصل جاء في لحظة كان ينبغي أن يبقى فيها ما عند الله مقدمًا عليه، وهذه نقطة مركزية في فقه القلب؛ فليست الفتنة دائمًا معصية واضحة، بل قد تكون شيئًا مباحًا يأخذ مساحة لا يستحقها، وقد لا يكون الخلل في الشيء نفسه بل في موقعه من سلم الأولويات، فالمال نعمة، ولكنه إذا أخذ مكان الطاعة صار فتنة، والراحة نعمة، لكنها إذا أضاعت واجبًا صارت خللًا، والعمل عبادة إذا صلحت نيته، لكنه إذا ابتلع الصلاة والأهل والقلب صار صنمًا ناعمًا لا يراه صاحبه لأنه لم يسمه صنمًا.

ثم قال: ﴿انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، وهذه الكلمة وحدها تحمل حركة نفسية كاملة؛ فالانفضاض ليس مجرد خروج فرد أو فردين، بل تفرق بعد اجتماع، وانحلال لنظام كان قائمًا، وكأن التجارة لم تجذب أجسادًا فقط، بل قطعت خيطًا كان يجمعها حول الذكر، وفي هذا تصوير لقوة بعض

المغريات حين تدخل إلى جماعة من الناس؛ فالإنسان قد يثبت وحده في موقف، ثم يضعف حين يرى الآخرين يتحركون، ويصبح الانفضاض جماعيًا لأن كل واحد يجد في حركة غيره تبريرًا لحركته، وهكذا قد تتكاثر الغفلة اجتماعيًا كما يتكاثر الإيمان اجتماعيًا.

ويمكن للإنسان أن يقرأ هذه الكلمة على نفسه في كل زمان: إلى ماذا أنفض؟ ما الشيء الذي إذا ظهر في حياتي جعل بقية المعاني تتراجع؟ قد يكون مالًا، وقد يكون خبرًا، وقد يكون هاتفًا، وقد يكون شهرة، وقد يكون نزاعًا، وقد يكون حديث الناس عني، فالانفضاض ليس مرتبطًا بالسوق القديم وحده، بل بكل لحظة يترك فيها القلب ما هو أعلى لشيء أدنى لأن الأدنى أكثر لمعانًا في تلك اللحظة.

ثم تأتي العبارة التي تحمل من العتاب ما يكاد يوجع القلب لمجرد تصور المشهد: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم، يعلّم ويذكّر ويخطب، ثم تقع المفاضلة عمليًا بين الوقوف معه وبين اللحاق بالتجارة، ولا تحتاج الآية إلى أن تقول إن ذلك مؤلم في المعنى؛ فالصورة نفسها تكفي، وكأن القرآن يضع أمام الإنسان مقياسًا صارمًا لقيمة الصحبة مع الوحي: ما الذي يمكن أن يجعلك تترك موضع النور وأنت تعرف أنه نور؟

وفي ﴿قَائِمًا﴾ بعدًا شعوريًا بالغًا؛ فالرسول لم يكن منفضًا عنهم، بل قائمًا بمهمته، بينما هم الذين تحركوا، وكأن الخلل لم يكن في الرسالة التي انقطعت عن الناس، بل في الناس الذين انقطعوا عنها، وهذه حقيقة تتكرر في حياة البشر: قد يقول الإنسان إن القرآن لا يؤثر فيه، بينما يكون هو الذي لا يبقى أمامه بما يكفي، وقد يقول إن الذكر لم يغير حياته بينما يتركه كلما ظهر له ما يشغله، وقد يشتكي من قلة النور وهو الذي لا يثبت أمام مصباحه.

وليس المقصود أن يعيش الإنسان في شعور دائم باللوم تجاه كل حركة في الدنيا، فالقرآن نفسه أباح الانتشار والابتغاء، وإنما المطلوب أن نعرف لحظة كل شيء؛ وهذا من أعظم معاني

الحكمة، أن تعرف متى يكون السوق مكان طاعة ومتى يصبح البقاء فيه مخالفة، ومتى يكون الصمت عبادة ومتى يصبح الكلام واجبًا، ومتى تكون الراحة حقًا ومتى تصبح هروبًا، فليست قيمة الأفعال منفصلة عن أوقاتها ومقاصدها وسياقاتها.

ثم تأتي الكلمة التي تعيد بناء الميزان كله: ﴿قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، وهذه العبارة يمكن أن تكون قاعدة حياة كاملة، لأنها لا تقول إن ما في الدنيا معدوم القيمة، بل تقول إن ما عند الله خير، وهذا التفريق مهم؛ فالتجارة فيها خير، والرزق خير، واللذة المباحة خير، والأسرة خير، والصحة خير، لكن المشكلة تبدأ حين يتعامل القلب مع الخير الأدنى كأنه الخير الأعلى، فتأتي الآية لتعيد مراتب الأشياء: لا تزدَر الدنيا، لكن لا تجعلها سقفك، لا تكره النعمة، لكن لا تنس المنعم، لا تهجر الأسباب، لكن لا تجعلها أكبر من الذي بيده الأسباب.

و﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ تعبير يفتح أفقًا لا تستطيع المخيلة أن تحيط به؛ لم يقل: الثواب فقط، ولا الجنة فقط، ولا البركة فقط، بل ترك الباب واسعًا لكل ما عند الله من رضوان وقرب ورحمة وسكينة وأجر وبركة وحفظ وهداية وتعويض، وكأن المرء حين يترك شيئًا لله لا يدخل في معاملة يستطيع أن يحسب عائدها كاملًا، لأن الطرف الآخر هو الله، وما عنده لا يدخل في مقاييس السوق التي تعودت عليها.

وهنا يقع التحول العظيم في عقل المؤمن: من عقلية «ماذا سأخسر إذا أطعت؟» إلى عقلية «ماذا عند الله إذا أطعت؟»، والفرق بين السؤالين يصنع فرقًا هائلًا في القدرة على الثبات؛ فالذي ينظر فقط إلى ما يتركه يرى الطاعة خسارة، والذي ينظر إلى من يترك لأجله يرى ما يتركه صغيرًا، ولذلك كانت معرفة الله أصلًا من أصول القدرة على التضحية، فكلما عظم الله في القلب صغرت الأثمان التي تُدفع في سبيله.

ثم قال: ﴿خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾، فجمع الأمرين اللذين جذبا الناس، وكأنهما يمثلان جناحين كبيرين من أجنحة الدنيا: ما نطلبه للمتعة، وما نطلبه للمنفعة، اللهو من جهة، والتجارة من جهة، والإنسان غالبًا يتحرك بينهما؛ يريد شيئًا يربحه، وشيئًا يمتعه، ثم يأتي الوحي ليقول إن حتى هاتين القوتين اللتين تحركان جانبًا واسعًا من الحياة البشرية ليستا النهاية، فما عند الله خير من متعتك وربحك معًا.

والتقديم في قوله ﴿مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ﴾ بعد أن جاء في أول الآية ﴿تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ يلفت النظر من جهة النظم، وكأن الجواب لا يكرر العبارة آليًا، بل يعيد عرضها في ميزان جديد، ما كان في المشهد الخارجي تجارة ولهوًا أصبح في التصحيح الإلهي لهوًا وتجارة أمام ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ﴾، والمعنى الجامع أن كليهما ينخفض حين يوضع أمام الأعلى.

وليس في هذه المقارنة إدانة للجمال والفرح والربح، بل حماية لها من أن تتحول إلى مركز مطلق؛ لأن الإنسان إذا جعل المتعة غايته أفسد المتعة نفسها بكثرة مطاردتها، وإذا جعل المال غايته أفسد المال علاقته بالناس وبنفسه، أما إذا وُضع كلاهما في موضع الوسيلة أو النعمة تحت سيادة المعنى الأكبر، استطاع الإنسان أن ينتفع بهما دون أن يستعبدهما.

ويمكن أن نفهم السورة كلها بوصفها تحريرًا من الاستعباد الخفي؛ بدأت بـ﴿الْمَلِكِ﴾ حتى تعرف أن السيادة لله، ثم أرسلت الرسول ليحررك من ضلال النفس، ثم حذرت من أن يستعبدك العلم نفسه إذا تحول إلى غرور، ثم ذكرت الموت ليحررك من وهم الخلود، ثم أمرت بترك البيع لتثبت أنك لست عبد المال، ثم أعادتك إلى العمل حتى لا تصبح عبد الكسل باسم الزهد، ثم ختمت بـ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ حتى يصبح قلبك قادرًا على أن يعيش في الدنيا دون أن يسجد لها.

ثم تأتي آخر كلمات السورة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وكأن القرآن عرف أن أعمق ما قد يقف خلف الانفضاض إلى التجارة ليس الطمع وحده، بل الخوف أيضًا؛ ربما يخاف الإنسان أن تضيع فرصة، أو أن يفوته رزق، أو أن يعود خالي اليدين، فيضع الوحي يده على جذر الخوف: من الذي يرزق حقًا؟ وهل السوق مصدر مستقل للرزق حتى تخاف أن يفوتك الله من أجل السوق؟

إن قوله ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لا يلغي التاجر ولا صاحب العمل ولا الراتب ولا الزبون ولا السبب، لكنه يرفض أن تمنح هذه الأشياء رتبة ليست لها؛ الناس قد يكونون أسبابًا، والله هو الرازق، والوظيفة سبب، والله هو الرازق، والسوق سبب، والله هو الرازق، ولذلك فإن المؤمن لا يهين السبب ولا يؤلهه، بل يستخدمه وهو يعلم من أين تأتي قوته في الأصل.

وهذه العقيدة لو استقرت في القلب حقًا لأحدثت ثورة أخلاقية في حياة الإنسان؛ كم من إنسان كذب لأنه ظن أن الكذب يحفظ رزقه، وكم من آخر سكت عن حق لأنه خاف أن يُغلق عليه باب، وكم من ثالث أذل نفسه لإنسان لأنه تخيل أن رزقه مربوط برضاه، وكم من رابع دخل في الحرام لأنه قال إن الضرورة الاقتصادية أقوى من الأمر، ولو سكنت ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ في أعماق هذه النفوس لا على اللسان فقط لتغيرت قرارات كثيرة.

فالإيمان بالرزق ليس أن تقول إن الله يرزق ثم تعيش كأن البشر يملكون خزائنك، بل أن تأخذ بالأسباب بكل جدية ثم لا تفقد نفسك إذا تحركت الأسباب ضدك، وأن تستطيع أن تقول للحرام: لا، لأن رزقي ليس محصورًا في هذا الباب، وأن تستطيع أن تستغني عن إذلال روحك أمام الناس لأن مفاتيح خزائن الله ليست في جيوبهم.

وهذا لا يعني أن المؤمن لا يقلق أبدًا، ولا أن حاجاته المادية تصبح وهمًا؛ الفقر يؤلم، وفقدان الوظيفة ثقيل، ومسؤوليات الإنسان حقيقة، لكن الفرق بين إيمان حي وإيمان ضعيف ليس

غياب الشعور بالضغط تمامًا، بل في الجهة التي يعود إليها القلب حين يشتد الضغط؛ هل يعود إلى الله أم ينكسر أمام السبب؟ وهل يحافظ على حدوده أم يبيعها ليطمئن لحظة؟

ولعل كلمة ﴿خَيْرُ﴾ في ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ تفتح بابًا آخر: رزق الله ليس محصورًا في المال، فقد يرزقك مالًا ويمنعك سكينة، أو يقلل مالك ويرزقك قلبًا راضيًا وصحة وأسرة ومحبة وسترًا وهداية، والإنسان الذي يختزل الرزق في رقم واحد يعجز عن رؤية معظم ما يملكه، بينما القرآن يوسّع معنى الفضل حتى ترى أن رزقك الحقيقي شبكة هائلة من النعم، كثير منها لا يدخل الحساب البنكي.

ومن هنا نفهم أن خاتمة السورة لم تقل: والله «الرازق» فقط، مع أن ذلك حق، بل ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ في سياق قوم انجذبوا إلى سبب الرزق، وكأن العبارة تقول: ما الذي يجعلك تترك الأصل من أجل الوسيط؟ وكيف تخاف على رزقك وأنت تترك الرازق من أجل ما تتوهم أنه يرزقك؟

إنها مفارقة مؤلمة في طبيعة الإنسان: قد يعصي الله خوفًا على رزق أعطاه الله إياه أصلًا، وقد يفقد ثقته بالرازق حين يختل السبب، مع أن السبب نفسه لم يكن موجودًا قبل أن يخلقه الله، وما أكثر الأبواب التي يفتحها الله للإنسان من حيث لم يحتسب بعد أن يظن أن الباب الذي أُغلق كان الباب الأخير.

ولهذا فإن آخر آية من سورة الجمعة ليست نهاية موضوعية فقط، بل عودة عميقة إلى أول آية؛ في البداية: ﴿الْمَلِكِ﴾، وفي النهاية: ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾، وبين الملك والرزق تمتد حياتك كلها، فمن عرف أن الله هو الملك عرف أن ما في يده ملك لله، ومن عرف أنه الرازق لم يبع طاعته طلبًا للرزق، ومن جمع هاتين الحقيقتين استطاع أن يدخل السوق بقلب حر، وأن يخرج منه إذا نودي للصلاة بقلب حر أيضًا.

وهنا يتضح سر السورة كلها: لم تكن تريد أن تخرج التجارة من حياة المؤمن، بل أن تخرج عبودية التجارة من قلبه، ولم تكن تريد أن تحرمه اللهو المباح، بل أن تمنع اللهو من أن يلهيه عن الحقيقة الكبرى، ولم تكن تريد أن تقطع صلته بالأرض، بل أن تجعله يمشي عليها وهو موصول بالسماء.

والسؤال الذي تتركه الآية حيًا في الضمير أوسع من واقعتها الأولى: ما الذي إذا رأيته انفضضت إليه؟ ما التجارة التي تستطيع أن تسحبك من موضعك عند الله؟ وما اللهو الذي يسرق منك أعمارًا ثم لا يترك في روحك شيئًا؟ وما الباب الذي تخاف إغلاقه لأنك نسيت أن الله خير الرازقين؟

قد لا يكون الجواب متجرًا.

قد يكون هاتفًا لا تستطيع أن تضعه حين يناديك الواجب.

وقد يكون جمهورًا تهجر من أجله صدقك.

وقد يكون منصبًا تتنازل لأجله عن مبدأ.

وقد يكون شخصًا تخشى فقدانه حتى تقدم رضاه على رضا الله.

وقد يكون خوفًا على المستقبل يجعلك تعيش الحاضر في معصية.

وكل هذه الصور تقول الشيء نفسه: هناك تجارة ولهو يتجددان، وهناك رسول تركه قوم قائمًا يومًا، وهناك وحي لا يزال قائمًا بيننا يقول: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

وإذا لم تستطع هذه العبارة أن تحرر قلبك، فستظل الدنيا دائمًا قادرة على أن تساومك؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يترك الأدنى إلا حين يرى الأعلى، ولا ينتصر على إغراء القريب بمجرد تحريم نفسه منه، بل حين يمتلئ قلبه بما هو أبقى وأجمل وأعظم.

ولهذا كانت التربية القرآنية لا تقوم على المنع وحده، بل على إعادة تشكيل الذوق الروحي؛ لا يقول لك فقط: لا تنفض إلى التجارة، بل يقول: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾، أي انظر في الاتجاه الآخر، فلا تجعل كل طاقتك في مقاومة ما يلمع، بل تعرّف إلى ما هو أبهى منه، وكلما ازداد القلب معرفة بالله قل احتياجه إلى أن يقتنع في كل مرة أن الدنيا صغيرة، لأنها تصغر تلقائيًا أمام ما عرف.

وفي هذه النقطة تلتقي نهاية السورة ببدايتها مرة أخرى؛ هناك بدأنا من تسبيح الكون، وهنا ننتهي إلى قلب ينبغي أن يعرف كيف يسبح وسط السوق، فالتسبيح الحقيقي ليس أن تقول سبحان الله وأنت بعيد عن أسباب الفتنة فقط، بل أن يظل الله منزهًا في قلبك عن أن تظن أن أحدًا يرزقك استقلالًا عنه، وعن أن تتهم حكمته إذا فاتك صفقة بطاعته، وعن أن تجعل مخلوقًا أملك لقلبك من الملك القدوس العزيز الحكيم.

إن الكون يسبح لأنه يعرف موضعه.

والإنسان يضل حين ينسى موضعه.

وسورة الجمعة جاءت لتعيده إليه.

الخاتمة

من تسبيح الكون إلى حرية القلب

هكذا تنتهي الرحلة القصيرة في عدد آياتها، الواسعة في آفاقها؛ إحدى عشرة آية فقط، لكنها أخذتنا من السماوات والأرض إلى داخل السوق، ومن أسماء الله إلى تفاصيل البيع، ومن بعثة الرسول إلى لحظة انفضاض الناس، ومن فضل الهداية إلى خطر المعرفة التي لا تعمل، ومن دعوى الولاية إلى رهبة الموت، ومن المسجد إلى الأرض، ثم أعادت كل شيء في النهاية إلى سؤال واحد: من يحتل المركز في قلبك؟

بدأت السورة بصيغة لا وجود فيها للإنسان مركزًا: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأن أول علاج للغفلة أن تخرج من وهم أن العالم يدور حولك، ثم قدمت لك أربعة أسماء: ﴿الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾، لتقول إن الذي ستتلقى عنه الأمر بعد قليل ليس فكرة مجردة، بل الملك الذي له السلطان، والقدوس المنزه عن النقص، والعزيز الذي لا يغلب، والحكيم الذي لا يضع شيئًا في غير موضعه.

ثم جاء الرسول: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾، وهنا انتقلنا من الكون إلى الإنسان، ومن النظام الذي يخضع للأمر الكوني إلى القلب الذي يحتاج إلى وحي يعيده إلى الطريق، وكانت وظيفة الرسول أعمق من أن يعطي الناس معلومات: ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وكأن هذه الكلمات الأربع هي منهج إعادة خلق الإنسان؛ كلام من الله يدخل الأذن، ثم يطهر الداخل، ثم يبني العقل، ثم ينضج البصيرة.

ثم فتحت السورة الزمن وقالت: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، فوجدنا أنفسنا نحن القادمين بعد القرون داخل امتداد النعمة، ثم قطعت الطريق على العجب: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾، فلا أحد يملك أن يتحول بالهداية إلى متكبر، لأن أعظم ما يفتخر به هو أصلًا هدية لم يصنعها وحده.

ثم جاءت الآية الخامسة كزلزال معرفي: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، وفجأة لم يعد السؤال: هل لديك كتاب؟ بل: هل يحملك الكتاب؟ ولم يعد السؤال: ماذا تعرف؟ بل: ماذا صنعت بك معرفتك؟ وهنا اكتشفنا أن أخطر أنواع الجهل قد يسكن خلف كثير من المعلومات حين لا تتحول إلى خشية وخلق وعمل.

ثم أسقطت السورة وهم الامتياز بالدعوى: ﴿إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ﴾، وجاء الموت ليمتحن الصورة التي صنعها الإنسان عن نفسه، ثم كشفت الآية التالية السر: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فالأعمال لا تختفي حين تنتهي لحظاتها، بل تسافر أمامنا إلى اللقاء.

ثم جاءت الآية الثامنة كواحدة من أعظم آيات كسر الغفلة: ﴿إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾، فكل فرار داخل الزمن هو اقتراب، وكل يوم نظنه امتدادًا للحياة هو في الوقت نفسه خطوة نحو النهاية، لكن الموت لم يكن في السورة عدمًا، بل رجوعًا: ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

وبعد أن وضعت السورة الآخرة بهذا الثقل في القلب، جاء الأذان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وكان يمكن أن يكون الإيمان مفهومًا نظريًا إلى تلك اللحظة، لكن النداء نقله إلى الامتحان؛ السوق يعمل، والصفقات ممكنة، ثم يقول الله: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾، وهنا يتبين هل استقرت كل المعاني السابقة أم لا، لأن الدين الذي لا يستطيع أن يغيّر موعد صفقتك حين يأمرك الله لا يزال بحاجة إلى أن ينزل من المعرفة إلى الحياة.

ثم لم يتركنا القرآن في المسجد: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وكأن الإسلام يقول: لا أريدك هاربًا من الدنيا، بل أريدك أقوى منها، عد إلى تجارتك، إلى علمك، إلى عملك، إلى مشروعك، لكن عد وأنت تعرف أنها كلها فضل من الله، واذكر الله كثيرًا حتى لا يعيد السوق بناء الأصنام التي هدمتها الصلاة.

وأخيرًا وقع الاختبار الواقعي: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا﴾، فظهرت هشاشة الإنسان أمام المرئي والعاجل، ثم نزلت الجملة التي تلخص الطريق كله: ﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾.

هذه ربما هي الجملة التي ينبغي أن تبقى بعد إغلاق الكتاب.

ما عند الله خير حين تميل إلى الحرام لأن نفعه قريب.

ما عند الله خير حين تخاف أن تضيع منك فرصة لأنك التزمت بالحق.

ما عند الله خير حين تغريك شهرة تُدفع من كرامتك ثمنًا لها.

ما عند الله خير حين يكون الانتقام ألذ من العفو.

ما عند الله خير حين يبدو الصبر أثقل من الاستسلام للهوى.

وما عند الله خير حين تلمع أمامك الدنيا كلها وتقول لك: أنا كل شيء.

ثم تأتي الكلمة الأخيرة لتطمئن أكثر المخاوف البشرية التصاقًا بالقلب: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وكأن السورة تقول لك بعد كل رحلتها: تستطيع أن تخرج من عبودية السوق، لأن رزقك ليس في يد السوق.

تستطيع أن تقول لا للحرام، لأن رزقك ليس في يد الحرام.

تستطيع أن تحفظ كرامتك، لأن رزقك ليس في يد من تريد أن تذل نفسك أمامه.

تستطيع أن تقيم الصلاة وتترك البيع، لأن الذي دعاك إلى الصلاة هو الذي رزقك البيع أصلًا.

وحين يصل القلب إلى هذه الحقيقة لا تصبح الدنيا عدوه، بل تعود إلى مكانها الطبيعي؛ وسيلة جميلة إذا أطاعت الغاية، ونعمة إذا دلت على المنعم، ومزرعة إذا قادت إلى الآخرة، لكنها تكون خطرة فقط حين تريد أن تصبح أكبر مما خُلقت له.

وهكذا يمكن أن ننظر إلى سورة الجمعة كلها بوصفها سورة تحرير القلب من سوء ترتيب الأشياء؛ فالإنسان لا يفسد فقط لأنه يحب الشر، بل لأنه قد يحب الخير الصغير أكثر من الخير الكبير، ويقدم النافلة على الفرض في مواضع، والعاجل على الآجل، والمخلوق على الخالق، والسبب على المسبب، والصورة على الحقيقة، فتأتي السورة لتعيد كل شيء إلى رتبته.

الله أولًا، لأنه الملك.

الوحي نور، لأنه من عند القدوس.

الرسول معلم ومزكٍّ، لأنه مبعوث من العزيز الحكيم.

العلم مسؤولية، لا زينة.

الدعوى لا تكفي، لأن الموت يكشف الحقيقة.

السوق مهم، لكنه ليس أكبر من النداء.

الرزق مطلوب، لكن الرازق أعظم من الرزق.

والدنيا تُعمر، لكنها لا تُعبد.

ولعل هذا هو المعنى الأعمق للجمعة نفسها: أن يجتمع ما تفرق فيك، لا الناس فقط؛ أن تجمع قلبك بعد أن بعثرته المصالح، وأن تجمع رؤيتك بعد أن شتتها التفاصيل، وأن تعود مرة كل

أسبوع إلى الحقيقة التي كان ينبغي ألا تغيب عنك أصلًا: أن الله أكبر، ليس في تكبيرة الصلاة فقط، بل أكبر من كل شيء يمكن أن يطالب بالمركز في قلبك.

فإذا خرجت من الجمعة وأنت لا تزال ترى المال بالحجم نفسه الذي دخلت به، والخوف بالحجم نفسه، والخصومات بالحجم نفسه، والنفس بالحجم نفسه، فقد حضرت بجسدك ولم تكتمل رحلة قلبك، أما إذا خرجت وبعض الأشياء قد صغرت لأن الله كبر في وعيك، فهذه واحدة من ثمار الذكر الذي دعت إليه السورة.

والجمعة بهذا المعنى ليست يومًا من أيام الأسبوع فقط، بل تصحيحًا أسبوعيًا لاتجاه القلب.

تأتيك والدنيا تقول: أنا التي ترزقك.

فتجيب السورة: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

وتقول لك نفسك: ما معك من العلم يكفي.

فتجيب السورة بصورة حامل الأسفار.

وتقول لك الدعوى: أنت من أهل الله.

فتأتي السورة بالموت لتسأل: ماذا قدمت يداك؟

وتقول لك الأسباب: لا تتركني لحظة.

فيأتي النداء: ﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ﴾.

وتقول لك الرهبانية: اترك الأرض إن أردت الله.

فيقول الوحي: ﴿فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

ويقول لك التشتت: لا يمكن أن تبقى ذاكرًا وسط الحياة.

فيقول الله: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾.

وفي النهاية، حين تتزاحم الأصوات كلها، يبقى ميزان واحد لا يخونك:

﴿مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ﴾

وهذه، في جوهرها، ليست فقط خاتمة سورة الجمعة.

إنها طريقة كاملة للعيش.

أن تمضي في الأرض، وتطلب رزقك، وتحب الحياة، وتفرح بالجمال، وتبني وتكتب وتنتج وتحسن، لكن يبقى في أعمق نقطة من قلبك شيء لا يُشترى ولا يُساوَم عليه، شيء يعرف دائمًا أن فوق التجارة ربًّا، وفوق اللهو معنى، وفوق الأسباب مسببًا، وفوق الدنيا آخرة، وفوق كل ما في الأيدي ما عند الله.

وعندئذ فقط تستطيع أن تعيش بين الناس دون أن تذوب فيهم، وأن تدخل السوق دون أن يدخل السوق إلى محراب قلبك، وأن تحمل المال دون أن يحملك، وأن تعرف الكتاب دون أن يتحول إلى أثقال، وأن تسمع النداء فتتحرك إليه لأن روحك تعرف صوت صاحبها.

وهنا نعود إلى أول مشهد، إلى الكون كله وهو يسبح.

كانت السماوات تعرف طريقها.

وكانت الأرض تعرف طريقها.

وكان المطلوب من الإنسان، عبر هذه السورة كلها، أن يعرف طريقه هو أيضًا.

فإذا أصبح ذكر الله حيًا في قلبه، وعلمه عملًا، وعمله عبودية، ورزقه فضلًا، ودنياه طريقًا لا وطنًا أخيرًا، فقد التحق ـ على قدر بشريته ـ بذلك التسبيح الذي افتتحت به السورة:

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾

تمت رحلة التدبر في سورة الجمعة كاملة، من الآية الأولى إلى الآية الحادية عشرة.